

الهجرة والثقافة والهوية

حالة مصر

تأليف

أيمن زُهري

خبيرُ السُّكَّانِ ودراساتُ الهجرة

مكتبة جزيرة الورد

الهجرة والثقافة والهوية

اسم الكتاب : الهجرة والثقافة والهوية: حالة مصر

المؤلف : د. أيمن زهري

الناشر : مكتبة جزيرة الورد - القاهرة

رقم الإيداع : 2021/14580

التقييم الدولي : ISBN: 978-977-834-448-6

ثبت المراجع المقترح:

أيمن زهري (2021) الهجرة والثقافة والهوية: حالة مصر، مكتبة

جزيرة الورد، القاهرة.



مكتبة جزيرة الورد

القاهرة : ٤ ميدان جليم خلف بنك فيصل

ش ٢٦ يوليو من ميدان الأوبرا ت : ٠١٠٠٠٤٠٤٦ - ٢٧٨٧٧٥٧٤

Tokoboko_5@yahoo.com

الهجرة والثقافة والهوية حالة مصر

أيمن زُهري

هزمناهم، ليس حين غزوناهم، بل حين أنسيناهم تاريخهم
وحضارتهم.

الشاعر اليوناني سيمونيدس بعد سقوط أسبرطة

المحتويات

12.....	إهداء
14.....	على سبيل التقديم
13.....	(1) في حتمية الهجرة
17.....	(2) سؤال الهوية عبر التاريخ
23.....	(3) قنبر بونا برتة وهوية المحروسة
29.....	(4) أسرة محمد علي وأوربة مصر
57.....	(5) ستينات عبد الناصر وعروبتة
71.....	(6) ثقافة البترودولار وخلصنة المجتمع المصري
109.....	(7) الموزاييك الثقافي والهويّاتي!
111.....	المؤلف
113.....	قائمة المراجع
117.....	كتب أخرى للمؤلف

إهداء

إلى مصر التي في خاطري، أهدي هذا الكتاب.

على سبيل التقديم

تُعد الهجرة وعلاقتها بالثقافة والهوية من الموضوعات الشائكة المتداخلة التي يعزف الكثيرون عن الكتابة فيها لعدة أسباب أهمها أن توخي الموضوعية في تلك الأبحاث أمر يكتنفه العديد من المصاعب والعقبات، أولها تتمثل في صعوبة أن يفصل الباحث نفسه عن السياق. أنا كباحث مصري نشأت في مصر وتشبعت بثقافتها، ربما أجد في تناول ذلك الموضوع بموضوعية تامة من الصعوبة بمكان. فأنا مغروس في طين تلك الأرض وارتباطي بها ربما يُعد من الأشياء المصيرية التي شكّلت ثقافتي وإدراكي للعالم وتفسيري للظواهر الاجتماعية التي تحدث في وطني وفي العالم.

النقطة الثانية والأهم، إن استطعت تجاوز النقطة الأولى، هي مسألة وضعي الشخصي داخل هذا البحث، وعدم قدرة الباحث الفرد على إنجاز عملٍ متكاملٍ في هذا الموضوع مهما بلغت قدراته ومهما خصّص له من وقت، إذ أن مسائل الهجرة والثقافة والهوية هي في ذاتها موضوعات تتقاطع وتشابك مع العديد من العلوم الاجتماعية والإنسانية.

بين الهجرة إلى مصر قبل خمسينات القرن الماضي والهجرة القسرية إلى مصر منذ بدايات القرن الحادي والعشرين، كان الخروج الكبير للمصريين باتجاه ممالك النفط في الخليج، تلك الهجرة التي قلبت أحوال المجتمع المصري رأساً على عقب بما أحدثته التحويلات المالية للعاملين المصريين بالخارج من رواج اقتصادي وتفاوت اجتماعي من خلال خلخلة التراتبية الطبقية، والأخطر ما أحدثته التحويلات غير المالية (التحويلات الاجتماعية والثقافية) وتزامنهما مع توجهات الدولة في فترة حكم الرئيس الراحل محمد أنور السادات نحو مغازلة، ثم تمكين، ثم تمكّن جماعات الإسلام السياسي من مفاصل المجتمع وهدم قيم ومبادئ المجتمع والجنوح نحو انتماءات فوق وطنية. في هذا الكتاب الصغير، أحاول تتبع قصة الهجرة وتأثيرها على المجتمع المصري وعلى الهوية المصرية قبل وبعد عصر الهجرة الكثيفة لممالك الخليج؛ أتبع القصة منذ البداية، منذ حملة نابليون بونابارت على مصر حتى وقتنا الحالي.

أيمن زهري

(1) في حتمية الهجرة

الهجرة ظاهرة إنسانية وفعل حيوي لدرجة أنني أستطيع القول بأن الأموات فقط هم الذين لا يستطيعون تغيير مجال إقامتهم. ساهمت الهجرة في رسم خريطة توزيع السكان على ظهر البسيطة ومن خلالها انتقلت الثقافات والأديان والأفكار والفلسفات. من خلالها أيضا ازدهرت إقتصاديات العديد من الدول من خلال انتقال العمالة من مناطق الفائض الديموغرافي إلى مناطق العجز الديموغرافي ما أدى الى سد العجز في عنصر العمل الذي بدونه لا تكتمل عملية إنتاج السلع والخدمات ودوران عجلة الاقتصاد. إذن الهجرة هي الحاضنة التي أدت إلى تلاقح الثقافات التي تمخضت عن ذلك المزيج المبهج من الثقافات المتعددة التي يحياها البشر اليوم.

مع ازدياد الحراك البشري، سواء كان ذلك الحراك طوعيا أو قسريا، زاد الحراك المجتمعي وزادت اللحمة بين بني البشر وتداخلت الثقافات. على سبيل المثال، لم تعد الإسكندرية كما كانت قبل

الهجرات الأوروبية التي قصدها خلال وبعد الحربين العالميتين الأولى والثانية. فمع وفود الأوروبيين للإسكندرية فرارا من الحروب، أسسوا لثقافة جديدة تلاحت وتشابكت مع الثقافة المحلية لمدينة الإسكندرية وأنتجت ما يعرف بالثقافة الكوزموبوليتانية أو ثقافة المدن الكبيرة التي تشمل مكونات ثقافية عدة؛ تجربة نفخر بها حتى الآن ونعتبرها نموذجا راقيا للتعايش بين العرقيات والثقافات المختلفة الذين قرروا الانصهار في بوتقة واحدة على أرض مصر. تجربة أنتجت شاعر الإسكندرية العظيم قسطنطين كفافيس اليوناني الأصل والمخرج العبقرى توجو مزراحي، إيطالي الأصل الذي أخرج فيلم سلامة للسيدة أم كلثوم ضمن أكثر من ثلاثين فيلما قام بإخراجها. تجربة شهدت قيام أخوين شاميين هما سليم وبشارة تقلا بإصدار جريدة الأهرام، أهم جريدة عربية، من الإسكندرية. مدينة السينما الإسكندرية، التي شهدت عام 1896 ثاني عرض عالمي للسينما في العالم بعد فرنسا احتضنت عائلة بهنا العراقية التي أسست شركة "منتخبات بهنا فيلم"، واحدة من أهم شركات الإنتاج والتوزيع السينمائي في العالم أنتج إخوان بهنا عام 1932 أول فيلم غنائي مصري وثاني فيلم ناطق في السينما المصرية هو فيلم "أنشودة الفؤاد" بطولة

جورج أبيض، اللبناني الأصل والمولد الذي كان أول نقيب للممثلين في مصر.

نفس الأمر تكرر في القاهرة بعد الأحداث المؤسفة التي شهدتها الجمهورية العربية السورية بدءاً من مارس 2011 والتي أدت الى الشتات السوري الكبير. استقرت أعداد كبيرة من الإخوة السوريين في مدينة السادس من أكتوبر وأسسوا صناعات وخدمات جديدة كان من أهمها إدخال صناعة المأكولات السورية بكثافة لتلك المنطقة ما أدى إلى إحداث نوع من التنوع الثقافي الذي أدى الى اعتبار تلك المنطقة مزاراً رئيسياً للعديد من الأسر والأفراد في ظل الاندماج التام للإخوة السوريين مع أبناء المدينة.

بين الهجرة إلى مصر قبل خمسينات القرن الماضي والهجرة القسرية إلى مصر منذ بدايات القرن الحادي والعشرين، أو قبله بقليل من خلال الهجرة القسرية لإخوتنا من أفريقيا جنوب الصحراء والهجرة من العراق ثم من ليبيا وسورية واليمن بعد أحداث ما يسمى بالربيع العربي كان الخروج الكبير للمصريين باتجاه ممالك النفط في الخليج، تلك الهجرة التي قلبت أحوال المجتمع المصري رأساً على عقب بما

أحدثته التحويلات المالية للعاملين المصريين بالخارج من رواج اقتصادي وتفاوت اجتماعي من خلال خلخلة التراتبية الطبقية، والأخطر ما أحدثته التحويلات غير المالية (التحويلات الاجتماعية والثقافية) وتزامنها مع توجهات الدولة في فترة حكم الرئيس الراحل محمد أنور السادات نحو مغازلة، ثم تمكين، ثم تمكّن جماعات الإسلام السياسي من مفاصل المجتمع وهدم قيم ومبادئ المجتمع والجنوح نحو انتماءات فوق وطنية.

(2) سؤال الهوية عبر التاريخ

كانت مصر، على مر التاريخ، دولة نابضة بالحياة والحركة ولم يكن سؤال الهوية مطروحاً بشكل واضح أو مباشر عبر تاريخها الطويل. لم تطفُ مسألة الهوية على السطح بشكل مباشر وواضح سوى في القرن التاسع عشر، في دولة محمد علي وأبنائه. قبل القرن التاسع عشر، وقبل حملة نابليون بونابرت تحديداً، وتحديداً منذ بداية فقدان الاستقلال الوطني بشكل مباشر ومتواصل مع بداية الغزو اليوناني على يد الاسكندر الأكبر عام 332 قبل الميلاد وحتى القرن التاسع عشر واستقلال محمد علي وأبنائه بحكم مصر وفصلها، ولو جزئياً عن الامبراطورية العثمانية، لم تكن مصر وهوية مصر سوى هوية أو هويات المستعمر، حتى أنه لم يكن فقط يحتلها المستعمر تلو الآخر، بل كان يتداول عليها في كثير من الأحيان أكثر من مستعمر في ذات الوقت.

حتى لا يقول قائل إنني أغفلت محاولات سابقة لاستقلال مصر، أقول أن محاولات أحمد بن طولون أو محاولات المماليك الاستقلال بمصر لم تكن في حقيقتها استقلالاً بقدر ما كانت رغبةً من الحاكم في الفكك من أسر دوائرٍ استعماريةٍ إقليمية، ليس أكثر من ذلك، ولم يكونوا مصريين. طبعاً الشعب كان دائماً لا يُنظر له سوى كدافعٍ للضريبة أو الجزية أو أي مسمى آخر، أو كجموع من السوقة والدهماء والجمعيدية، لا قيمة لهم ولا وزن، ثم، في مرحلة لاحقة، كأنفار يتم تشغيلهم بالسخرة لتحقيق أحلام الحاكم، مثل مشروع قناة السويس وشق ترعة الإسماعيلية في عهد الخديو إسماعيل والذي أودى بحياة مائة وعشرين ألف مصري خلال فترة المشروع. كان المصريون أيضاً يتم الزج بهم في حروب ومعارك لا ناقة لهم فيها ولا جمل فيما كان يعرف بالجهادية.

سؤال الهوية إذن سؤال قديم جديد. المصري العادي لا يفكر عادة في هذا السؤال. المصري العادي مرتبط بالأرض ارتباطاً عفويا لا يحتاج لتفسير. يتحمل دائماً جور الإدارة الحكومية ولا يتذمر غالباً. لا يفكر المصري العادي كما يفكر الثوار والمتفقون ولا يفلسف مسألة



الهوية. تبدأ مسألة الهوية مع الارتقاء في مراحل التعليم. كما ذكرت
أنفا، الهوية المصرية هوية ثرية ومتداخلة ومتشابكة ولا يمكن تفكيكها
بسهولة.

عندما كنت أدرس بالمركز الديموغرافي بالقاهرة في أوائل تسعينيات
القرن الماضي وكان بالمركز العديد من الجنسيات من أوروبا وآسيا
وأفريقيا، دأب أستاذنا الدكتور هشام مخلوف على إحياء فكرة اليوم
العالمي حيث كان الطلاب يحضرون بأزيائهم الوطنية. أذكر في بداية
إحياء تلك المناسبة عام 1993 أن ارتديت جلباباً أحضرته لي إحدى
الزميلات للمشاركة في هذه المناسبة، وارتدت زميلة لنا الزي المصري
القديم (المسمى خطأ بالزي الفرعوني) وارتدت زميلة أخرى زي
الفلاحة المصرية بطرحتها التقليدية المزركشة وارتدى أحد الزملاء من
محافظة شمال سيناء الزي البدوي التقليدي. سألت نفسي ساعتها: ما
هو الزي الرسمي للمصريين؟ هل هو الزي المصري القديم؟ إن كان
كذلك، هل يمكنني في اليوم التالي أن أرتدي هذا الزي وأنزل من
بيتي وأركب المواصلات العامة وأحضر إلى قاعة الدرس وأنا بهذا
اللباس؟

الإجابة بالطبع معروفة، لا يمكن وإن أمكن فهو لا يليق. هل يمكن أن يرتدي وزيراً في الحكومة جلباباً ويذهب به لحضور الاجتماع الأسبوعي للحكومة؟ الإجابة بالطبع لا. هل يمكن أن تذهب زميلتنا لمحل عملها وهي ترتدي الجلابية الفلاحي الواسعة الفضفاضة المريحة بألوانها الزاهية إلى العمل؟ هل يقبل رئيسها في العمل ذلك؟ هل هناك بالفعل ما يمنع ذلك؟ هل يمكنني أن أدخل النادي الأهلي أو نادي الزمالك، نوادي الطبقة الوسطى، وأنا أرتدي الجلباب؟ الإجابة بالطبع لا، ممنوع.

هل يمكن أن أدخل أي مكان في مصر وأنا أرتدي البنطال والقميص الأوروبيين أو أرتدي بدلة وربطة عنق؟ الإجابة بالطبع نعم. إذن الزي الأوروبي هو اللباس الوطني العابر للملابس الإقليمية. طبعا كنت أتمنى أن يكون هناك زياً وطنياً يتحلى به الجميع في كافة المناسبات، لكن يبدو، مع تعدد وغنى الثقافة المصرية، ارتضى الجميع الزي الأوروبي كممثل وحيد لهم. هل- هذا شيء جيد؟ لا أتصور ذلك، فالتطور بالنسبة لنا هو الفرنجة. عندما غضب طه حسين على الأزهر وذهب إلى باريس، عاد نابذا العباءة والقفطان

الأزهريين واستبدلتهما باللباس الغربي. أحد أقاربي من خريجي الأزهر فعل نفس الشيء. بعد الغزو الوهابي لمصر انتشر الجلباب وأراد له البعض أن يكون زيًا فوق وطني، وكان لهم ما خططوا له لفترة زمنية محدودة.

الخلاصة أن سؤال الهوية، في بلد مثل مصر، هو السؤال الأصعب والسؤال المتكرر والعابر للأجيال والذي لا إجابة نهائية أو قاطعة له. الموزاييك الثقافي ينتج لوحة فنية متشابكة ومتماسكة لا يمكن اختزالها في لباس واحد ولا ذوق واحد ولا مأكلاً أو مشرب واحد.

(3) قنبر بونابرتة وهوية المحروسة

"فلما نزل عليهم القنبر ولم يكونوا قد عاينوه، صاحوا يا خفي الألفاف نَجْنَا ما نخاف." هكذا وصف عبد الرحمن الجبرتي، مؤرخ الحملة الفرنسية على مصر 1801-1978 حال أهل مصر المحروسة عندما نصب نابليون بونابرت (بونابرتة كما كان العامة يسمونه وقتها) مدافعه فوق القلعة مصوبا فوهاها نحو القاهرة ليقصف أهلها بالقنبر (القنابل) التي لم يكن يعرفها أهل القاهرة. رغم سوداوية ومأساوية تلك اللحظة ووقوع مصر بعدها تحت الاحتلال الفرنسي لفترة قصيرة، إلا أن هذه اللحظة تعد لحظة فارقة في سبيل عصرنة مصر وإيقاظها من سباتها الطويل تحت الحكم العثماني/المملوكي.

يمكن القول أن تلك اللحظة الفارقة تفصل بين فترتين مهمتين فيما يرتبط بهوية مصر وثقافتها. قبل تلك اللحظة، ولمئات السنوات في ظل حكم المماليك والعثمانيين، عاشت مصر في مرحلة تشبه القرون الوسطى في أوروبا؛ مرحلة تمثل فترة سبات عميق. هي في الحقيقة

مرحلة موات سريري، فالحكام المماليك والعثمانيون يمثلون طبقة منفصلة تماماً عن الشعب، أما الشعب فقد كان لا ذكر له تقريباً، وقد كثر في تلك الحقبة السلب والنهب والقتل سواء من الحكام والمماليك ورجال السلطة أو من العربان الذين كانوا يمثلون دائماً خطراً وتهديداً للمجتمعات الزراعية المستقرة حول مصدر المياه الرئيس الذي هو نهر النيل. أدى ارتباط الناس بالزراعة المعتمدة على مياه النيل إلى ديكتاتورية السلطة التي تتحكم في توزيع مياه النهر منذ المصريين القدماء حتى ظهور المدن الكبرى والاعتماد على التجارة والصناعة والخدمات جنباً إلى جنب مع الزراعة.

قبل تلك الفترة، أي قبل حملة بونابرت، كان المغضوب عليهم من المارقين، من وجهة نظر الحكومة، لا يجدون أمامهم سوى الصحراء للفرار من بطش الحكام المركزيين وولاية المديرات ولذلك عرفوا بمطاريذ الجبل. إستمر الفرار للصحراء للهروب من السلطة إلى فترة قريبة في التاريخ المصري وقد وثقت الدراما والسينما "مطاريذ الجبل" في العديد من الأعمال الفنية. يلاحظ بالطبع أن مطاريذ الجبل لم يتمكنوا عبر التاريخ المصري من تكوين مجتمعات طبيعية في الفيافي

والجبال نظرا لافتقارها للمقوم الرئيس للحياة الطبيعية وهو المياه، فكان لابد من الحصول على الأقوات الكفيلة بالإبقاء على حياتهم بالإغارة علي القرى والتجمعات السكانية القريبة.

يذكر أن الالتجاء الى الصحراء قد تأسس في عصر الاضطهاد الديني الروماني للمؤمنين المصريين ما أدى إلى فرار العديد من رجال الكنيسة المصرية للصحراء. تعد تلك الهجرة الدينية بداية تأسيس الرهبة في الكنيسة الأرثوذكسية المصرية.

المصريون والفنون في عهد نابليون

عودة للحظة الفارقة وهي الحملة الفرنسية على مصر. كنت في زيارة لفرنسا عام 2010 وكان هناك معرضا في معهد العالم العربي في باريس بعنوان "نابليون نور ونار." أعجبت باسم المعرض كثيرا لأنه في الحقيقة يعكس ماهية الحملة الفرنسية على مصر، فهي نار واحتلال مباشر لمصر مرفوض ومدان في كل الأحوال، إلا أنها في ذات الوقت نور، كما يشير عنوان المعرض، حيث أنها بالرغم من عدم سلامة نوايا الغزاة، إلا انها أحدثت زلزالا في بنية المجتمع المصري وأشعرتهم بمدى التخلف الذي كانوا يعيشون فيه وبعدهم الشديد عن الأخذ بطرائق

التقدم ومواكبة الطفرة الحضارية بينهم في زمانهم هذا وبين الغزاة الذين حضروا بعلمائهم وأدواتهم وبارودهم وقنبرهم وأجروا دراسات علمية مستفيضة للمجتمع المصري في كافة أرجاء القطر المصري فيما عرف بكتاب وصف مصر La description de l'egypte، أضيف إلى ذلك اكتشافهم حجر رشيد الذي من خلاله تم فك طلاسم اللغة المصرية القديمة والذي فتح الباب لمعرفة الحضارة المصرية القديمة التي كان ينظر لها المصريون على أنها بقايا أناس غضب الله عليهم وحوّلهم لمساخيطة ودمرهم تدميراً لأنهم كانوا قوماً فاسقين، من وجهة نظر المؤمنين آنذاك، والمؤمنين بالفكر السلفي الوهابي في القرن العشرين وحتى وقتنا هذا.

الانقطاع الثقافي مقابل التلاحق الثقافي

بقدر كبير من اليقين، أستطيع القول أن مصر، أو المجتمع المصري بشكل أدق، ظل معزولاً عن العالم لفترة طويلة حتى وصول حملة نابليون بونابارت للقاهرة عام 1798. قبل ذلك، لم تكن المحروسة تستقبل سوى المماليك الجراكسة/الشراكسة والأثراك من الطبقة التي لا تنتمي لجموع الشعب المصري، أو بمعنى أدق لجموع السوقة

والدهماء والجعيدية كما وصفهم المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتي. صحيح أن فئات وطبقات المجتمع المصري في ذلك الوقت كانت كثيرة ومتعددة، لكن بالرغم من ذلك التعدد يمكن بشكل كبير تحديد طبقتين كبيرتين؛ الطبقة الأولى، كما ذكرت، تتمثل في طبقة غير المصريين الذين بيدهم مقاليد السلطة، والمصريون بمختلف طوائفهم الذين لا يملكون من أمر أنفسهم شيئاً.

لو تحدثنا عن طبقة غير الحكام نجد أنها تضم طوائف وجماعات عديدة مثل العُربان والفلاحين خارج العاصمة، والتجار وأصحاب الحرف والسوقة والدهماء في المدن، خاصة في المحروسة. كانت القاهرة دائماً هي الحاضنة للقادمين الجدد من خارج البلاد، كانت تضم بعض التجار وأصحاب الحرف والمرابين والغوازي وتجار المتعة الذين يأتون عادة من أماكن أخرى من الإمبراطورية العثمانية، إلا أنه من الملاحظ أن معظمهم كانوا يأتون من بلاد الشام وقبرص وبعض الأماكن الأخرى.

لا ننسى أيضاً طبقة الجوارى والعبيد والمجلوبين والغلمان الذين كانت تتنوع البلدان التي يجلبون منها. كان هؤلاء يعملون عادة في المنازل

وكان بعضهم يعملون أيضا في صناعة اللهب. كان من حظ مصر أن معظم عبيدها كانوا يجلبون من الجنوب من ذوي البشرة الداكنة. ربما أدى ذلك لارتباط كلمة عبد في الثقافة المصرية بلون البشرة السوداء، بخلاف العبيد في عاصمة الإمبراطورية العثمانية المجلوبين/ المجلوبات من روسيا والبلغار وبعض دول الشمال الأخرى من الصفراوات والحمرات ذوات البشرة الفاتحة. في حالة مصر، كانت تلك النوعية من المجلوبات يتولين السلطنة عليهم ويقمن بدور السيدة الأولى في بلاط السلاطين المماليك. لا يمنع ذلك وجود بعضهن في أسواق الجواري والعبيد جنبا إلى جنب مع الجواري والإماء المجلوبات من الجنوب.

(4) أسرة محمد علي وأوربة مصر

لا أميل إلى اعتبار محمد علي دخيلاً على مصر، فمصر وقت قدومه إليها كانت جزءاً من الإمبراطورية العثمانية التي كان يحق لأي فرد فيها أن ينتقل من بلد إلى آخر مثل الهجرة الداخلية حالياً من أي محافظة إلى محافظة أخرى. لا أعيب عليه أيضاً عدم إجادته للغة العربية، لأن اللغة العربية لم تكن اللغة الرسمية للإمبراطورية العثمانية. كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية.

تخلص محمد علي من كل من مدّوا له يد العون عندما قدم إلى مصر، فبعد مذبحه المماليك الشهيرة تخلص من كافة الرموز الوطنية التي أتت به للحكم بعد ثورتهم على خورشيد باشا. عندما أستعيد تلك الأحداث أجدني أسأل نفسي سؤالاً جوهرياً مؤلماً وهو "لماذا لم يقيم الوجهاء والعلماء الذين أصروا على خلع خورشيد باشا باختيار واحد منهم لتولي الحكم؟ لماذا الإصرار على مبايعة هذا الضابط التركي على تولى القيادة؟ هل لطول استعمار بلدهم وتولي الأجانب عليهم بشكل

دائم حتى أنهم لم يتصوروا أن يكون الحاكم واحداً منهم؟ هل كان من الصعب أن يدينوا بالولاء والطاعة لواحد من بني جلدتهم؟

تخلص محمد علي، كما أسلفت الذكر، من كافة خصومه فبعد أن تولى الحكم، وخوفاً من تعاضم نفوذ عمر مكرم، عزله من نقابة الأشراف ونفاه إلى دمياط في التاسع من أغسطس عام 1809، ثم عاد فنفاه إلى طنطا في الخامس من أبريل عام 1822. العجيب أن النفي كان بسبب وشايات المشايخ والأعيان، وهو أمر لو تعلمون عجيب؛ يشون بابنهم وزعيمهم للوالي العثماني الغريب عليهم. بين التاريخين، وفي الفاتح من مارس عام 1811، نقذ محمد علي مذبحه القلعة للتخلص من غرمائه التقليديين، المماليك.

إنجازات محمد علي لا تعد ولا تحصى فهو بحق باني مصر الحديثة، جاء إلى مصر بعد أن تفتحت أعين بعض وجهائها على الفارق الحضاري الشاسع بين مصر العثمانية المملوكية وأوروبا (متمثلة في حملة نابليون بونابارت). جاء محمد علي للحكم وفي مخيلته برنامجاً طموحاً غير محدد المعالم، لكنه كان يرى مصر بعيون أوروبية. كان هدفه إنشاء امبراطورية مستقلة عن الدولة العثمانية له ولأولاده من

بعده على غرار الممالك القائمة على الشاطئ الشمالي من البحر المتوسط. فالقائد العثماني اليوناني الألباني الأوروبي هو أول من آمن "بأوربة مصر" والعمل نحو النموذج الأوروبي.

لا أريد في هذا الصدد التفتيش في نوايا محمد علي وطمعه في الاستقلال بمصر ولا حتى رغبته في تحقيق مجد شخصي ولا حتى مكاسب مالية شخصية، سواء من احتكار زراعة القطن أو التحكم في الأراضي أو غيرها، لكن ما يمكن الوثوق به، أن محمد علي جاء وفي خاطره حلم كبير بأن تكون مصر هي بلده وبلد أبنائه من بعده وأن يكون مجدها وازدهارها هو مجد وازدهار عائلته وذريته، وهو ما تحقق بالفعل واستمر لحوالي قرن ونصف من الزمان.

الاستعانة بالأجانب

في سبيل أوربة مصر، ونظرا لعدم وجود الكفاءات المصرية التي يمكن أن تساعد محمد علي في مخططة الرامي لتحديث مصر، استعان محمد علي بالأجانب، خاصة من فرنسا وإنجلترا. استعان على سبيل المثال بسليمان باشا الفرنسي لتكوين نواة الجيش المصري الحديث في ذلك الوقت. كان سليمان باشا الفرنسي أحد المتخلفين عن

الحملة الفرنسية على مصر، حيث بقي بها واعتنق الإسلام. كان لسليمان باشا الفرنساوي شارعا يحمل اسمه وتمثالا منتصبا في قلب القاهرة حتى قيام ثورة يوليو 1952 حيث رُفِع التمثال وحل محله تمثال طلعت حرب وتم تغيير مسمى الشارع أيضا ليحمل اسم طلعت حرب.

استعان محمد علي كذلك ببوغوص بك يوسفيان السياسي المصري أرمني الأصل ليتولى نظارة الخارجية والتجارة. كان بوغوص بك يوسفيان، المولود في ازمير عام 1768، يجيد اللغات الأرمنية والتركية واليونانية والإيطالية والفرنساوية. إستمر يوسفيان في خدمة محمد علي قرابة عقدين من الزمان. جدير بالذكر أن بوغوص بك يوسفيان هو أول من أدخل شتلات البرتقال سهل التفشير والذي سُمِّي باسمه (اليوسفي أو اليوستفندي بالعامية المصرية نسبة إلى يوسف أفندي).

استعان محمد علي بالعديد من الشخصيات الأجنبية في مجالات الطب والهندسة والري والصناعة من جنسيات مختلفة وسار على نهجه أبناؤه من بعده.

إعادة إحياء الإسكندرية

يمكن القول، بقدر كبير من التأكد، أن الإسكندرية الحديثة التي نعرفها هي صنيعه رجل واحد محمد علي. عندما تولى محمد علي السلطة عام 1805 كانت الإسكندرية في أسوأ حالاتها. كان عدد سكان الاسكندرية في ذلك الوقت حوالي ستة آلاف نسمة. لم يكن للاسكندرية في ذلك الوقت شأن يذكر وكان كل شيء فيها غارق في الإهمال. بنهاية حكم محمد علي عام 1849، إرتفع عدد سكان الإسكندرية إلى حوالي مائة ألف نسمة ومثلت في ذلك الوقت بوابة مصر الرئيسية ونافذتها على العالم (مانسيل 2017).

كثف محمد علي اهتمامه بالإسكندرية حتى أصبحت الميناء الأول لمصر، وتراجعت أهمية ميناء دمياط وميناء رشيد، ثم كانت النقلة الكبرى في حياة الاسكندرية وهي حفر ترعة المحمودية لربط الإسكندرية بالفرع الغربي للنيل وتوفير المياه اللازمة للعمران وللتوسع في الزراعة خارج النطاق المعمور للمدينة. افتتحت ترعة المحمودية عام 1821. تحولت الإسكندرية في عهد محمد علي القادم من الشاطئ المقابل للاسكندرية إلى عاصمة مصر غير الرسمية.



بعد الرواج الذي شهدته المدينة على أيدي مؤسسها الجديد، بدأ الأجانب في التدفق للمدينة من كافة الأنحاء؛ يونانيون وإيطاليون وأتراك وشوام وغيرهم. أدى الرواج التجاري للمدينة أيضا إلى نشوء تيار هجرة داخلية قوي من المديرية المجاورة ومن أماكن متفرقة من القطر المصري. أضف إلى ذلك العديد من البريطانيين والفرنسيين

واليونانيين والإيطاليين والأتراك والألبان. كان من ضمن سكان الإسكندرية في ذلك الوقت أحد من تخلّفوا من جنود نابليون وهو الكولونيل جوزيف سيف، الذي أعلن إسلامه والذي عُرف فيما بعد باسم سليمان الفرنساوي، الذي ساعد في تدريب جيش محمد علي، الذي ضم جنوداً من سورية والبلقان. بخلاف الهجرة الطوعية لليونانيين للمدينة، قدم إلى الإسكندرية عدداً كبيراً من اليونانيين الذين بيعوا كعبيد بعد مذبحه خيوس التي ارتكبتها الدولة العثمانية بحق اليونانيين عام 1822.

استمر توافد الأجانب واستقرارهم بالإسكندرية حتى عام 1956 عندما بدأ تفريغ الإسكندرية من التنوع مع نشأة تيارٍ مناهضٍ للجاليات الأجنبية في خمسينات القرن الماضي. ارتبط هذا التيار بتأسيس دولة إسرائيل والعدوان الثلاثي على مصر والمد القومي العربي في عهد عبد الناصر.

شهدت الإسكندرية نشأة السينما المصرية حيث شهدت صنع أول شريط سينمائي مصري عام 1907، حيث قام المصوران السكندريان - من أصول سورية وإيطالية - عزيز بندرلي وأمبرتو دوريس بتصوير

فيلم عن زيارة الخديوي عباس حلمي الثاني للمعهد العلمي بمسجد أبي العباس. استمرت الريادة السينمائية للاسكندرية حتى نهاية عقد الثلاثينيات من القرن العشرين وساهمت الجاليات اليونانية والإيطالية والسورية في هذا النشاط بشكل كثيف. من الجدير بالذكر أيضاً أن جريدة الأهرام العريقة تأسست في الاسكندرية على أيدي اللبنانيين سليم وبشارة تقلا عام 1875، وصدر العدد الأول من الجريدة في الخامس من أغسطس عام 1876.

ساهمت ثورة يوليو 1952 وما تلاها من توجه قومي عربي، وكذلك إعلان دولة إسرائيل قبلها بسنوات قليلة، وكذلك العدوان الثلاثي على مصر عام 1956 وحصول مصر على استقلالها من إنجلترا عام 1954، شكلت كل تلك الأحداث سياقاً عاماً غير مرحب بالأجانب، الذين اضطروا لمغادرة البلاد. إنخفض عدد الأجانب في الأسكندرية بين تعدادي السكان لعامي 1947 و1960 من 63 ألف إلى أقل من 46 ألف شخص. أضف إلى ذلك أن توزيع الأجانب حسب الجنسية قد اختلف اختلافاً كبيراً بين التاريخين (Zohry, 2019). يوضح الجدول رقم 1 أدناه أعداد ونسب الجاليات غير المصرية التي

كانت تقيم في الإسكندرية طبقاً للجنسية عامي 1947 و 1960. يلاحظ من بيانات الجدول المذكور أن الجالية اليونانية كانت تشكل قرابة نصف عدد الأجانب المقيمين في الإسكندرية عام 1947، تليها الجنسية الإيطالية التي كانت تمثل قرابة عشرين بالمائة من الأجانب، تليها الجالية البريطانية (المحتلة لمصر في ذلك الوقت) والتي كانت تمثل خمسة عشر بالمائة من الأجانب بالإسكندرية.

إذا انتقلنا للعام 1960، نجد أنه بالإضافة لانخفاض عدد الأجانب في الإسكندرية، تغيرت تركيبتهم، حيث اختفى البريطانيون والأتراك والفرنسيون. حافظ اليونانيون والإيطاليون بنسبة تمثيلهم في مجتمع غير المصريين رغم انخفاض أعدادهم، إذ انخفض عدد اليونانيين من حوالي واحد وثلاثين ألفاً إلى حوالي خمسة وعشرين ألفاً، بينما انتصف عدد الإيطاليين تقريباً إذ انخفض من أكثر من إثنا عشر ألفاً إلى ستة آلاف وأربعمائة تقريباً. الملاحظ أن نسبة الأجانب من الجنسيات العربية لم تزد كثيراً.

الجدول رقم 1

الجاليات غير المصرية في الإسكندرية طبقا للجنسية عامي 1947 و1960

1960		1947		الجنسية
النسبة	العدد	النسبة	العدد	
2.7	1,211	0.6	393	سوريون
--	--	1.3	853	لبنانيون
3.4	1,547	0.3	164	فلسطينيون
5.8	2,655	--	--	سودانيون
5.3	2,398	0.2	155	عرب آخرون
14.0	6,398	19.5	12,370	إيطاليون
--	--	15.2	9,659	بريطانيون
--	--	3.2	2,003	أتراك
--	--	5.1	3,259	فرنسيون
53.9	24,609	48.4	30,753	يونانيون
13.9	6,328	6.2	3,925	أجانب آخرون
1.1	484	0.0	1	غير معلوم الجنسية
100.0	45,630	100.0	63,535	الإجمالي

المصدر: محسوب بواسطة المؤلف من تعدادات السكان 1947 و1960.

لكن هل كانت الإسكندرية مدينة كوزوبوليتانية تستوعب كل الثقافات وتختلط فيها الطوائف والعرقيات؟ بعكس السائد أو المتخيّل، لم تكن الإسكندرية يوماً كذلك. إسكندرية محمد على كانت شديدة الطبقيّة، كانت مدينة أوروبية أو أجنبية، لا يحظى فيها المصريون سوي بالوظائف والأعمال الدنيا. إسكندرية محمد على كانت إسكندرية الفرنسية والانجليز والأتراك والألبان وغيرهم، لم تكن أبداً إسكندرية المصريين. حتى تلك الجاليات لم تكن تختلط ببعضها البعض بشكل كبير، فكل جالية لها تجمعها السكني ونواحيها ومدارسها وكنائسها.

لم يتمصر الأجانب ولم يتحدثوا العربية إلا لأغراض التجارة ولم يصاهروا المصريين أو يندمجوا معهم إلا قليلاً، وبعد فترة زمنية طويلة من الاستقرار في الإسكندرية. بالنسبة للغة العربية، كان يغنيهم انغلاقهم على أنفسهم ومدارسهم الخاصة عن تعلمها. حتى علي المستوي الثقافي، كان إبداعهم يظهر دائماً بلغتهم، وربما أوضح دليل على ذلك شاعر الإسكندرية العظيم قسطنطين كفافيس (1863-1933) الذي كان يكتب قصائده باللغة اليونانية والذي وافته

المنية في المستشفى اليوناني بالإسكندرية. حتى من تحدثوا العامية المصرية لأغراض التجارة ولأغراض أخرى لم يتمكنوا، أو ربما لم يهتموا، بإتقانها بشكل كاف رغم طول مدة إقامتهم وظلت لديهم لكنة كانت دائماً مادة للتندر والفكاهة في الأعمال الفنية المصرية.

إن مصر ملك لنا، وأهلها ليسوا أكثر من عبيد لنا

"إن مصر ملك لنا، وأهلها ليسوا أكثر من عبيد لنا"، هكذا تحدث إبراهيم باشا أمام أبيه محمد علي في الخامس من سبتمبر 1832 حسب رواية مانسيل (2017). بالرغم من اصطفاؤه بعض المصريين النابهين لمساعدته في تحقيق أحلامه من أمثال رفاة رافع الطهطاوي، إلا أن محمد علي ونجده إبراهيم باشا كانوا ينظرون للمصريين نظرة دونية. ربما استمر ذلك بدرجة أقل طوال حكم الأسرة العلوية. ربما كان ذلك وراء عقدة الأجانب التي تصيب البعض حتى الآن.

كان محمد علي شديد الترحاب بالأجانب وشديد الغلظة على المصريين، يسوقهم كما تساق الأنعام إلى التجنيد الإجباري ويختطفهم رجاله خطفاً من القرى والنجوع حتى أن الفلاحين كانوا يحدثون عاهات بأنفسهم حتى يتخلّفوا عن التجنيد الإجباري الذي كان في

الغالب بلا عودة نظرا للزج بالجنود في حروب خارج الوطن لتحقيق طموحات الباشا أو إرضاء الباب العالي في إسطنبول أو مجاملة لأصدقائه في الممالك الأخرى.

كما ذكرت آنفاً، استمر أحفاد محمد على في تطبيق نفس السياسة، سياسة تفضيل الأجانب على المصريين، فكان المقياس عندهم عادة بالجنسية، إذ يتبوأ الأوروبيون المرتبة الأولى لديهم، يليهم بني جلدتهم من الأتراك والألبان الجراكسة وأحفاد المماليك الذين كانوا يتولون دائماً المناصب المهمة في الدولة مثل رئاسة مجلس النظار (مجلس الوزراء) والنظار (الوزراء) ورؤساء الهيئات والحاشية الملكية والمناصب الكبرى في الجيش والشرطة.

لمعت أسماء من أصول أجنبية عديدة في فترة حكم الأسرة العلوية، خاصة في القرن الثامن عشر من أمثال مصطفى فهمي باشا (من مواليد كريت باليونان) الذي تولى رئاسة الوزراء خلفاً لنوبار باشا (الأرمني الأصل المولود في أزمير بتركيا) ورئيس الوزراء محمد شريف باشا نجل أحمد شريف باشا الذي كان شيخاً للإسلام بالأستانة في عهد السلطان محمود، وغيرهم الكثير.

مع بداية القرن العشرين، وتحديدًا في العام 1907، بلغ عدد سكان مصر أكثر من إحدى عشر مليوناً (11,198,978 نسمة)، بلغ عدد الأجانب من بينهم 286,301 نسمة يمثلون 2.6 بالمائة من إجمالي عدد السكان في ذلك الوقت. يلاحظ أن جداول التعداد كانت تُصنّف الأجانب طبقاً لتبعيتهم أو طبقاً للدولة الراعية لهم. ففي الجدول رقم 2 أدناه نجد أن العثمانيين يشملون كل من الأتراك والسوريين والحجازيين والأرمن والسودانيين، بينما يمثل الإنجليزيون الإنجليز والمالطيون والهنود. يلاحظ أن الإنجليزيين في ذلك الوقت كانوا يمثلون جيش الاحتلال الذي كان قوامه عشرين ألفاً تقريباً. يلاحظ أيضاً أن المغاربة التونسيين كانوا يعاملون معاملة الفرنسيين نظراً لوقوع بلادهم تحت الاحتلال الفرنسي.

بعيداً عن التصنيف السابق، يمكن ملاحظة أن الأجانب الذين كانوا في مصر في مطلع القرن العشرين كانوا ينتمون لخمس جنسيات رئيسية هي السودانيون الذين كانوا يمثلون 22.8 بالمائة، يليهم اليونانيون الذين يمثلون 22 بالمائة من إجمالي الأجانب، ثم محل الإيطاليون في المرتبة الثالثة بنسبة 12.2، نسبة تقارب نسبة السوريين (11.9)

بالمائة)، ثم يأتي في المرتبة الخامسة الأتراك الذين كانوا يمثلون 9.6 بالمائة من إجمالي عدد الأجانب في مصر في ذلك الوقت. تمثل تلك الجنسيات الخمس قرابة ثمانين بالمائة من إجمالي الأجانب في مصر في ذلك الوقت. بخلاف جيش الاحتلال الإنجليزي بجنسياته المختلفة، كانت الجنسيات الأجنبية الأخرى مكونة من الحجازيين (سكان الحجاز) والأرمن والفرنسيين والمغاربة التونسيين والنمساويين والروس والألمان والسويسريين والبلجيكين والعجم وخليط من الجنسيات الأوروبية والأفريقية والآسيوية.

جدول رقم 2
المصريون والأجانب في مصر في تعداد 1907

نسبة الأجانب طبقاً للجنسية	نسبة المصريين والأجانب	إجمالي	الجنسية	
		10,366,046	مصريون	وطنيون
		537,631	عربان معدودين	
	97.4%	10,903,677	إجمالي المصريين	
9.6%		27,591	عثمانيون	أتراك
11.9%		33,947	سوريون	
0.2%		440	حجازيون	
2.7%		7,747	أرمنيون	
22.8%		65,162	سودانيون	
5.0%		14,361	إنجليزيون	إنجليزيون
2.0%		5,851	مالطيون	
0.2%		441	هنديون	
4.1%		11,685	فرنساويون	فرنساويون
1.0%		2,906	مغاربة تونسيون	
22.0%		62,973	يونانيون	
12.2%		34,926	إيطاليون	
2.7%		7,704	نمساويون	

0.8%		2,410	روسيون
0.6%		1,847	ألمانيون
0.2%		637	سويسريون
2.0%		5,673	جنسيات أخرى
100.0%	2.6%	286,301	إجمالي الأجانب
	100.0%	11,189,978	المجموع الكلي

المصدر: حسبت بواسطة المؤلف من بيانات تعداد 1907.

مع التوسع في التعليم وتضخم الجهاز الإداري للدولة، خاصة في النصف الأول من القرن العشرين، زاد الاعتماد على المصريين في كافة أجهزة الدولة مع استمرار تفضيل المصريين من أصول تركية ومملوكية وتوليم معظم المناصب الرفيعة في الدولة. لا بد أن نلاحظ هنا أن التحيز للمصريين من أصول أجنبية لم يكن لتفضيل الحكام لهم بشكل شخصي باعتبارهم الأقرب لهم، لكن يعود إلى حد كبير إلى تفضيل أهل الثقة وعدم ثقتهم بالمصريين وكون هؤلاء الأقرب ثقافياً للأسرة الحاكمة، هذا بالإضافة إلى أن المعاملة التفضيلية لهؤلاء جعلتهم الأكثر تعليماً والأكثر انفتاحاً على العالم والأكثر إتقاناً للغة التركية (اللغة الرسمية للسلطنة العثمانية) واللغة الأصلية لهم، وكذلك إجادتهم للعديد من اللغات الأخرى (خاصة الأوروبية) بخلاف الغالبية العظمى من المصريين في ذلك الوقت.

ديموقراطية النخبة

كان من حظ حكومات ما قبل الحركة المباركة أو حركة الضباط الأحرار، ما سُمي بعد ذلك بثورة يوليو 1952، أنها كانت تحكم شعبا أُمياً يزرع تحت نير الفقر والجهل والمرض، فلم تكن هناك سياسة

بالمعنى المفهوم للكلمة ولم تكن الحياة في مصر ليبرالية كما يدعي البعض. طبعاً سينبري البعض بالقول أن ما قبل ثورة يوليو 1952 يمثل الزمن الديموقراطي الليبرالي الحدائى. صحيح وهو بالفعل كذلك، لكنه كان بالإضافة إلى كل ذلك "الزمن النخبوي"، زمن تتحكم فيه القاهرة، أو ربما تتحكم فيه نخبة قليلة من أبناء القاهرة. فلا أحد يتصور أنه كانت هناك منافسة حقيقية بين الأحزاب في تلك الفترة مع سيادة الجهل، ولا أتصور شخصياً أي فرد في عزبة الباشا لا يذهب، رغباً أو رهباً، للتصويت لصالح الباشا أو حزب الباشا.

ثورة 1919 والقومية المصرية

قامت ثورة 1919 بينما كانت مصر تحت الاحتلال الإنجليزي. بالرغم من ذلك، استطاعت ثورة 1919 بعث الروح القومية المصرية في جموع الشعب المصري وكانت المحرك الرئيس للحراك السياسي الذي شهدته مصر في السنوات التالية للثورة. يمكن القول أن شعار الثورة "عاش الهلال مع الصليب" والشعار الذي رفعه أبناء مصر والذي أحل ثلاثة صلبان محل النجوم الثلاثة التي كانت جزءاً من علم مصر، إذ احتضن الهلال تلك الصلبان الثلاثة في مشهد يعزز الروح

الوطنية ويُتَّجى جانباً الرابطة الدينية، أو ربما يوحدّها؛ يمكن القول أن هذا المشهد كان بمثابة إعادة بعث للقومية المصرية والهوية المصرية القائمة على المواطنة بعد مئات السنوات من الانضواء تحت شعارات دينية يرتبط معظمها بمحركات خارجية وانتماءات فوق وطنية.

الجنسية المصرية

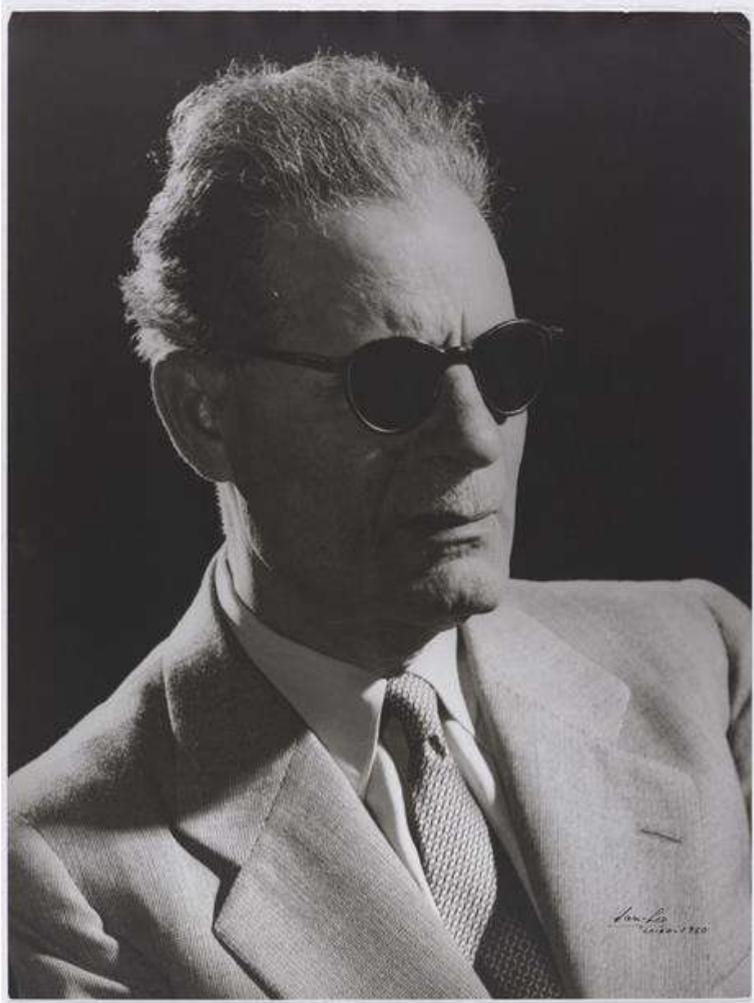
مع دخول مصر، المحتلة في ذلك الوقت من بريطانيا، الحرب ضد الدولة العثمانية (تركيا) في الخامس من نوفمبر عام 1914 لم تعد مصر فعلياً جزءاً من الدولة العثمانية. اتخذ الشارع المصري من هذا اليوم ميقاتاً لتحديد من تنطبق عليهم الجنسية المصرية. في الثامن والعشرين من فبراير عام 1922 أصدرت بريطانيا ما يعرف بتصريح 28 فبراير والذي أعلنت فيه بريطانيا إنهاء الحماية البريطانية على مصر، وأن مصر " دولة مستقلة ذات سيادة،" لكنها احتفظت بحق تأمين مواصلات امبراطوريتها في مصر، وحقها في الدفاع عنها ضد أي اعتداء أو تدخل أجنبي، وحماية المصالح الأجنبية والأقليات فيها، وبناء عليه تحولت السلطنة المصرية إلى المملكة المصرية.

بناءً على هذا التحول، كانت هناك حاجة إلى صدور قانون يحدد من هو المصري. لذلك صدر المرسوم بقانون الصادر في الحادي والعشرين من مايو عام 1926 بشأن الجنسية المصرية والذي اتخذ من الخامس من نوفمبر عام 1914 ميقاتاً لتحديد الجنسية المصرية، إلا أن هذا القانون لم يوضع موضع التنفيذ إذ حل محله بعد ثلاث سنوات المرسوم بقانون رقم 19 لسنة 1929 والذي صدر في العاشر من مارس. نصت المادة الأولى من القانون المذكور على أنه:

يعتبر داخلاً في الجنسية المصرية بحكم القانون:
(أولاً) أعضاء الأسرة المالكة.

(ثانياً) كل من يعتبر في تاريخ نشر هذا القانون مصرياً بحسب حكم المادة الأولى من الأمر العالي الصادر في 29 يونية سنة 1900.

(ثالثاً) من عدا هؤلاء من الرعايا العثمانيين الذين كانوا يقيمون عادة في القطر المصري في 5 نوفمبر سنة 1914 وحافظوا على تلك الإقامة حتى تاريخ نشر هذا القانون.



القوانين المؤسسة للجنسية المصرية في العصر الحديث وبعد انفصال مصر عن الدولة العثمانية توضّح لنا بجملاء أنه لم يتم إقصاء أو استبعاد أي من الجنسيات التي كانت تقيم في مصر إقامة دائمة، وهو ما يعني أن قانون الجنسية المصري منذ نشأته اعتمد علي مبدأ الإقامة الدائمة للأشخاص أو الأبناء، ولم يحدد عرقية أو عرقيات معينة أو انتماءات مذهبية محددة للمصري. بذلك يمكن القول أن المزيج العرقي والموزاييك الطائفي والمذهبي كان حاضراً منذ البداية وكان هو أساس تشكيل الهوية المصرية والجنسية المصرية منذ قرابة قرنين من الزمان.

مستقبل ثقافة طه حسين والاتجاه غرباً مجدداً

"مستقبل الثقافة في مصر" هو عنوان الكتاب الشهير الذي صدر للدكتور طه حسين عام 1938 والذي أثار جدلاً واسعاً حينذاك. كما أشار في تقديمه لكتابه، كتب الدكتور طه حسين كتابه للشباب. على الرغم أن الكتاب بالأساس يتحدث عن واقع ومستقبل التعليم في مصر، وليس الثقافة بمعناها الواسع، إلا أن الكتاب أثار الجدل

واصطدم مع المحافظين في المجتمع لتبني طه حسين في كتابه هذا الدعوة لاتباع منهج التغريب.

يرى طه حسين في هذا الكتاب أن مصر لن تتقدم إلا بما تقدم به الغرب عندما خرجوا من العصور الوسطى إلى نور المعرفة والحياة العصرية. الحديثة من- خلال البناء على- الهوية اليونانية القديمة. لا يخفى على القارئ إعجاب طه حسين بالحضارة اليونانية وثقافته الأوروبية وكُرهه للمنهج التعليمي الديني/الأزهري الذي عانى منه هو ذاته الأمرين في بداية حياته وأثناء دراسته في الأزهر.

كان سيد قطب من ضمن المعارضين لفكر الانفتاح على أوروبا وتبني نمط الثقافة الأوروبية كمدخل للحاق بركب التقدم كما روج لذلك طه حسين في كتابه. تناول سيد قطب أفكار طه حسين في هذا الكتاب بالنقد والتحليل في عدة مقالات في صحيفة دار العلوم. لم يهاجم سيد قطب كتاب طه حسين هجوماً شاملاً، إلا أنه قام بتنفيذ الفكرة الأساسية التي حاول طه حسين في كتابه تسويقها بشكل بارع وهي غربية الثقافة المصرية. على الرغم من انتقاد سيد قطب لتلك النقطة الجوهرية في كتاب طه حسين، إلا أنه، على الرغم من رفضه لطرح

طه حسين القائل بغربية الثقافة المصرية، إلا أنه رفض كذلك انتماء الثقافة المصرية للشرق (الهند واليابان والصين)، واقترح عوضاً عن ذلك طريقاً ثالثاً وهو انتماء الثقافة المصرية للشرق العربي.

طبعاً لا نتوقع توافقاً أو اتفاقاً بين طه حسين وسيد قطب في هذا المجال، حيث الأول يُغلب العقل ويعتبر الثقافة اليونانية هي النموذج الذي يجب أن تحذو مصر حذوه إن أرادت أن تلحق بركب التقدم، بينما سيد قطب، على الجانب الآخر يميل ميلاً شديداً نحو الإيمان بشمولية الدين ووجوب تدخّله في كافة أمور السياسة والاقتصاد والتشريع وكافة مناحي الحياة.

أستطيع القول بكثير من التأكد أننا في عصرنا الحالي لم نغادر تلك النقطة ولم نحسم تلك الجدلية ولم نصل لصيغة توافقية بين الحضارة الحديثة والدين إلا في فترات قصيرة خلال القرنين التاسع عشر والعشرين ثم نعود لننقض من بعد قوة غزلنا ونعيد الكرة من جديد.

لابد من ملاحظة أن فترات التنوير القليلة التي مرّت بها مصر وهي الفترات التغريبية التي كانت تتخذ من النموذج الغربي (الأوروبي) معياراً للتقدم والتخلف كانت دائماً مدفوعة بالإعجاب بالنموذج

الأوروبي. يتبدى ذلك جلياً في فترة حكم الأسرة العلوية، خاصة عهد الخديوي إسماعيل الذي اتخذ نماذج روما وباريس كهدفٍ لهضته، وسعى لتحويل القاهرة لتكون مثل تلك المدن، وكان له ما شاء، حتى أنه أمر بتغيير مجرى النيل عند دخوله القاهرة وتخلص من بعض الترع والروافد الصغيرة للنيل حتى يمر النيل داخل المعمور كما هو الحال الآن لكي تبدو القاهرة مثل مدن الامبراطوريات الأوروبية التي طالما حلم أبناء محمد على بأن تكون مملكتهم على غرارها.

يخطر ببالي دائماً مسألة النموذج المصري، أو الديني، في التعليم وما الذي كان يمكن أن يتطور عليه إن لم يحتلنا الأوروبيون ويفرضون علينا نظمهم وقوانينهم. السؤال الذي لا أجد له إجابة وافية أو شافية هو، ما هو الشكل الذي يمكن أن يكون عليه نظام التعليم في عصرنا الحالي إن اتبعنا مساراً مختلفاً عن المسار الأوروبي الذي فرض علينا؟ كيف كان لنظام الكتابات والتعلم الديني أن يتطور، وهل كان تطوره سيكون مغايراً تماماً لما نحن عليه الآن أم لا؟ كيف كان من الممكن أن تكون نظم الإدارة العامة للدولة والإدارة المحلية لدولة بحجم مصر إن تطورت بمعزل عن أوروبا؟



لا أستطيع، بحياد تام، أن أتصور ما الذي كان يمكن أن نصل إليه لأن الانعزال التام وعدم التأثير بما يحدث في مناطق أخرى من العالم حتى وإن لم يقيم الأوروبيون باحتلالنا احتلالاً مباشراً ويفرضوا علينا أنظمتهم وطريقتهم في الإدارة العامة والمحلية والطب والعلم ربما يكون أمراً لا يمكن تخيُّله. يمكن تخيل الحد الأدنى هو أننا ربما كُنَّا أكملنا خط الدولة المملوكية المعززة بالمباركة الدينية والطقوس المؤدية للخضوع التام للحاكم ولرجل الدين في آن.

في الحقيقة أستطيع القول بكثيرٍ من التأكد أن البديل الآخر غير مُتَّصور، أو يصعب تصوره بشكل مطلق، لأننا لا يمكن أن نستبعد، ولو على سبيل التجربة العلمية، تجربتنا مع النظم التي فرضها علينا الاستعمار والتي أصبحت ممارسات دولية معتبرة يتم تطبيقها في كافة أرجاء المعمورة.

(5) ستينات عبد الناصر وعروبه

على الرغم من أن فكرة القومية العربية قديمة قدم الوجود العربي في جزيرة العرب، إلا أن الفضل، كل الفضل، إن كان ذلك فضلا، الفضل في بلورة فكرة العروبة والقومية العربية وتطويرها لتصبح تيارا عاما في منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا يعود للرئيس الراحل جمال عبد الناصر الذي استطاع تحويل الفكر القومي العربي الذي أسسه ساطع الحصري وعبد الرحمن الكواكبي وقسطنطين زريق وغيرهم إلى واقع عملي. تأثر ناصر بفكر هؤلاء، كما تأثر كثيرا بتجربته في حرب فلسطين.

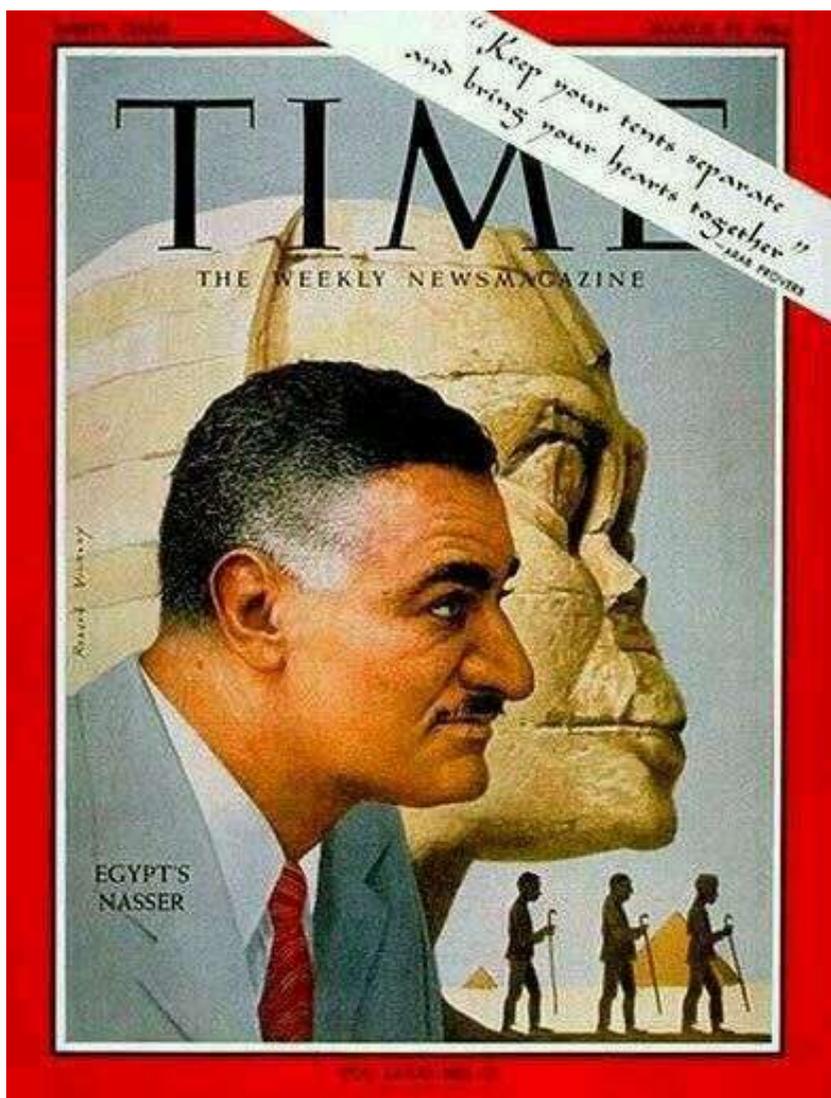
كانت طموحات جمال عبد الناصر أكبر من إحتلال الدول العربية التي كانت تزح تحت نير الاحتلال أو الخارجة لتوها من ربة المستعمر الغربي، هذا بالإضافة لدول الخليج التي لم تكن تشكلت بشكل واضح حينها. لم تكن عروبة ناصر رابطة دم أو عرقية بل كانت رابطة لغة وثقافة.

الذوبان في العروبة

طموحات ناصر كانت ترمي إلى وحدة اندماجية وكيان جغرافي كبير من المحيط إلى الخليج. جرّب ناصر الوحدة الاندماجية مع سورية 1958-1961 وفشل/فشلت. قبل ذلك بسنوات، وبعد نجاح ثورة 23 يوليو 1952، وفي عام 1953 تم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية، وبدلاً من "المملكة المصرية" لم يصبح الاسم الرسمي للبلاد الجمهورية المصرية أو جمهورية مصر، بل أصبح "جمهورية مصر العربية". تمت إضافة "العربية" بشكل رسمي، ليس فقط لاسم الدولة ولكن لكل مناحي الحياة تقريباً، حتى أن مصر فقدت اسمها لأول مرة في تاريخها الطويل لصالح "الجمهورية العربية المتحدة" كما سلف الذكر.

المصري العادي في الخمسينات والستينات كان يتنفس العروبة ويتعاطاها يومياً من خلال وسائل الإعلام والفن والغناء والاحتفالات، دون وجود عرب. اقتصر الوجود العربي على عدد قليل من الطلاب من البلدان العربية الذين كانوا يدرسون في القاهرة في ذلك الوقت أو من خلال العدد القليل من اللاجئين الفلسطينيين الذين استضافتهم مصر بعد حرب 1948.

العروبة في مصر كانت حالة من النشوة والفخار القومي تنازل المصريون فيها عن مصريتهم لصالح العرب والعروبة حتى أن مؤسساتهم الوطنية تمت تسميتها بالقومية وهيئة تليفزيونهم سُميت "التليفزيون العربي"، واذاعتهم أصبحت إذاعة صوت العرب وأغانيهم الوطنية أصبحت أغاني قومية واختلط الشعبي بالوطني بالقومي بجمال (جمال عبد الناصر) وتشابك الموقف وارتفعت الأحلام للذرى، ثم أطاحت الهزيمة النكراء عام 1967 بكل شيء، بالعروبة وبأحلام المحيط والخليج والقومية وبإلقاء العدو وما وراء العدو في البحر، وتبخّرت الأحلام القومية العربية ليحل محلها تدريجياً حلم القومية الدينية في عصر "الرئيس المؤمن" الذي فتح الباب على مصراعيه لجماعات الإسلام السياسي المعززة من قبل أطراف إقليمية، والذي أدى في نهاية المطاف إلى استهداف الرئيس السادات ذاته واستهداف النسيج الاجتماعي والثقافي للشعب المصري حتى وقتنا الراهن وهو ما سنفرد له صفحات عديدة في هذا الكتاب.



فن ما قبل وما بعد عبد الناصر بين المتعة والغواية

في البداية كانت الفنون تعبيراً عن خوف الإنسان من الطبيعة ومحاولة لإرضاء العوالم الغيبية حتى تكف أذاها عنه أو تهبه بعضاً من فيضها. من هنا كان الرقص وقرع الطبول لاستجلاب المطر او لطرد الأرواح الشريرة أو حتى لتحفيز الجنود من خلال قرع طبول الحرب. يعتبر الزار أيضا ضمن هذا الإطار.

بعد أن استطاع الانسان ترويض الطبيعة، إلى حد ما، أخذت تلك الطقوس طريقها لتكون نوعا من المتعة وإشباع الغرائز من خلال الراقصات والمغنيات المحبوبات عادة من اماكن أخري، وكأن الاماكن الاخري هي مصدر الرذيلة، وطبعاً كل شخص هو آخر بالنسبة للآخر. هنا ظهرت أهمية الغوازي والعبيد والغلمان وأصبح لكل كبيرٍ في قومه مغنيه الخاص أو مغنيته الخاصة وهكذا. مع تطور الحياة وانحسار العبودية والسي، أصبح بإمكان العامة شراء تلك المُتَع بالقطعة من خلال الذهاب لأماكن اللهو التي كانت توجد في الحواضر الكبيرة.

كان لكل مهنة من مهن المتعة كبير يسيطر عليها وكان احيانا ينضم لتلك الحرف الهاربين من ضغوط المجتمع والمهمشين. مع الحداثة والاستعمار الاوروبي وانتشار قيم التنوير، تحولت تلك المهن الى موضوعات علمية لها اكااديميات ومدارس لتعليم وتدرّيس فنون الفولكلور والرقص والتمثيل وغيرها من الفنون حتى وصل الاهتمام بتلك الفنون اوجه في ستينات القرن العشرين في مصر حتى أن أستاذاً في كلية الهندسة بجامعة القاهرة كان يفخر بان ابنته راقصة فنون شعبية - والد الفنانة فريدة فهمي.

ثم بدأت الهجمة الوهابية وعمل كبير المشايخ، مدعوما باموال النفط، على تحجيب الفنانات ومساعدتهم على إعلان توبتهم، وكأن الفن ذنب يستتاب عنه. من هنا بدأت الردّة والنظرة الدونية للفن وبدأت بعضهن هجر الفن من خلال عروض مغرية بالزواج من أمراء ورجال مال نفطيين. الأمثلة على ذلك كثيرة ولا أريد ان أُشخص هذا الموضوع. في النهاية، كل شخص مسئول عن تصرفاته لكن كنت أتمنى على هؤلاء الذين نكصوا عن الفن واعتبروه معصية وتابوا الى

الله أن يترهبنا او يتصوفوا ويحتجوا عن العالم وأن يبكوا على خطيئتهم بعيدا عن عالم الأضواء.

الستينات وما أدراك ما الستينات

تمثل حقبة الستينات قمة التوهج المصري في مجالات الثقافة والفنون وربما أيضا في مجالات الصناعة والإنشاء والتنمية الاجتماعية. بالنسبة للفن، ظهرت أسماء عديدة في كافة مجالات الفنون والثقافة. بعضها بدأ مسيرته قبل عقد الستينات وبعضهم لم يجد نفسه إلا من خلال حالة الزخم الثوري التي كانت سائدة في هذا الوقت. أذكر على سبيل المثال، لا الحصر، في مجال الأستاذ عبد الحليم حافظ وفي مجال الكتابة والشعر كوكبة كبيرة من المبدعين من أمثال نجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس وعبد الرحيم منصور وعبد الرحمن الأبنودي وصلاح جاهين ويوسف السباعي وإحسان عبد القدوس.

على الرغم من تفجر الطاقات المصرية العظيمة والعملاقة في مجال الفن في عقد الستينات، إلا أن مساهمة غير المصريين في الفن المصري استمرت. صحيح أن مساهمة غير المصريين في تلك الفترة اقتصر على حاملي الجنسيات العربية بالأساس إلا أن دورها كان

مؤثرا وداعما لهضة الفن المصري في تلك الفترة. مصر في تلك الفترة كانت رائدة الفن والثقافة العربية بلا منازع.

ظهر في تلك الفترة العديد من الكفاءات الفنية العربية التي احتضنتها مصر والتي تكاد تكون تمصّرت مع تماهيا مع الروح المصرية والثقافة المصرية. أذكر على سبيل المثال، لا الحصر، ملك العود الأستاذ فريد الأطرش، والسيدة فايزة أحمد والفنانة صباح والفنان عبد السلام النابلسي وغيرهم الكثير. عند الحديث عن الستينيات لا يمكن النظر لتلك الفترة كفترة قائمة بذاتها في تاريخ الوطن.

هي فترة متميزة بدون شك لكنها استفادت من تراكمات ثقافية وتعليمية ووطنية وسياسية حدثت في النصف الأول من القرن العشرين في مصر وحتى مرحلة الستينات. الستينات، كما أراها، هي مرحلة التوجه أو ربما مرحلة العروض الكبرى، أو ربما مرحلة التوجّه أو ربما مرحلة العرض المسرحي الكبير الذي أتاحه ارتفاع سقف طموحات المصريين ليلامس عنان السماء نتيجة لمدد الثوري والفخار الوطني والقومي في مرحلة ناصر ما قبل 1967. كل من شاركوا في



تلك المرحلة أو معظمهم، هم نتاج المرحلة السابقة لها، وكل، أو جل، من شاركوا في هذا الزخم الستيني تم إعدادهم في مرحلة سابقة، وكذلك الأعمال الأدبية والثقافية التي بنيت عليها تلك المرحلة. إنتهى الألق والأمل وانتهت أحلام القومية العربية وتحطمت على الهزيمة الساحقة عام 1967 التي كانت زلزالاً مروّعا على كافة المستويات.

عادت مصر بعدها لتتكش على ذاتها وتتفوق حتى أفادت من هزيمتها النكراء ورفعت رأسها مجدداً بعد حرب السادس من أكتوبر عام 1975. لم يدم طعم النصر طويلاً، فقد أدخلها الرئيس الراحل أنور السادات في مغامرات الانفتاح الاقتصادي والانفتاح على

الجماعات الإسلامية، ثم بسبب الحروب والزيادة السكانية والسياسات الاقتصادية غير المواتية أصبحت، وللأسف الشديد، تحويلات المواطنين المصريين العاملين في بلدان النفط مصدراً من أهم مصادر الدخل القومي المصري. هذه النقطة لنا فيها حديث طويل في هذا الكتاب.

أعمدة ميلاد حنا

الأعمدة السبعة للشخصية المصرية هو الكتاب الأشهر للمفكر المصري الراحل الدكتور ميلاد حنا، صدر عام 1989. يُعد هذا الكتاب إسهاماً فكرياً رصيناً من كاتبه في وقت ذابت فيه الشخصية المصرية في عامود واحد من الأعمدة التي ذكرها الدكتور ميلاد حنا في كتابه بسبب سيطرة الجماعات الإسلامية على المشهد الاجتماعي برؤيته، خاصة في التجمعات الحضرية الفقيرة وفي المحافظات الريفية والحضرية على حدٍ سواء. يقدم الدكتور ميلاد حنا الشخصية المصرية من خلال سبع طبقات متراكمة ومتسلسلة تاريخياً تبدأ من العامود الأول وهو الحضارة المصرية القديمة، ثم العامود الثاني وهو الحقبة اليونانية الرومانية، ثم العامود الثالث وهو العامود القبطي الذي يتداخل في بدايته مع الحقبة السابقة، ومتداخل في آخره مع الحقبة الرابعة وهي الحقبة الإسلامية.

بعد الأعمدة الأربعة أنفة الذكر، يستكمل ميلاد حنا أعمدته بذكر ثلاثة أعمدة يسميها بالأعمدة المكانية أو الانتماءات بحكم المكان، حيث يمثل المجال العربي العامود الرابع في أعمدة الدكتور ميلاد حنا يليه

العامود المتوسطي (نسبة إلى ثقافة شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط)، ثم العامود الأخير وهو العامود الأفريقي. يُقر الدكتور ميلاد حنا في كتابه أن أعمده السبعة تلك موجودة داخل كل مصري بدرجات متفاوتة، حيث يختلف حماس المصريين لتلك الانتماءات وفق تغير ظروف المجتمع، إلا أنه ينتهي إلى الإقرار بأن تلك الأعمدة السبعة في مجملها تسيطر على التركيبة النفسية لكل مصري.

يلاحظ أن ما أسماه الدكتور ميلاد حنا الأعمدة المكانية لا يختلف كثيراً عما أسماه الدكتور جمال حمدان "الأبعاد الأربعة" لمصر وهي البعد الآسيوي والبعد الأفريقي والبعد النيلي والبعد المتوسطي (حمدان 1993).

مع كامل التقدير لهذا العمل الثقافي العميق الذي يمثل صيغة توافقية تعمل على لم الشمل الوطني من خلال الاعتراف بكافة المؤثرات الثقافية التي تركت بصماتها الواضحة على الثقافة المصرية وعلى التركيبة الثرية للشخصية المصرية، إلا أن معظم أعمدة ميلاد حنا كانت استعمارية، ولا أتزید إن قلت أنها كانت نخبوية فوقية ولم تكن

بالأساس شعبية. أضف إلى ذلك أن معظمها، بخلاف الحقبة المصرية القديمة، كان خارجياً. أضف إلى ذلك أن الحقبة الإسلامية على سبيل المثال لم تكن وحدة واحدة. فصر تحت حكم الخلفاء الراشدين كانت مختلفة عن حكم الأمويين والعباسيين، ومصر تحت حكم الفاطميين تختلف تماماً عن مصر تحت حكم الإيوبيين أو المماليك أو العثمانيين. لكل حقبة نم تلك الحقب ما كان يميزها عن غيرها سواء من الناحية الاجتماعية أو من النواحي الاقتصادية والسياسية. كل حقبة من تلك الحقب تركت بصمة أو، ربما، ندبة على جبين الشخصية المصرية.

ماذا تبقى من أعمدة الدكتور ميلاد حنا؟ لا توجد إجابة وافية على هذا السؤال. ما الذي تبقى من الحقبة المصرية القديمة سوى الآثار واللغة القبطية التي كُتبت باليونانية "لاحتواء حروف اللغة المصرية القديمة على تعابير كُفريّة؟" ما الذي تبقى من الاحتلالين الروماني واليوناني سوى بعض الآثار والشواهد في الإسكندرية؟ ما هي التأثيرات الثقافية الباقية من هذين الاحتلالين الطويلين؟ لا شيء، ربما لا شيء!

ثم ما علاقتنا بالبحر المتوسط سوى أنه بوابة احتلال مصر منذ
الاحتلالين الروماني واليوناني ثم الحملات الصليبية، وصولاً لغزوة
نابليون ومعركة أبو قير والاحتلال الإنجليزي، ثم حديثاً، الغرق في
البحر من أجل العبور بقوارب الموت نحو أوروبا؟

لا شك أن العمل الذي قام به الدكتور ميلاد حنا هو عمل من
الأعمال الفكرية الرصينة التي ينجزها المفكرون والمتفكرون المنفتحون
على ثقافات العالم، لكن لا أثر يذكر لها على أرض الواقع. جرّبنا
الانتماء العربي في عهد عبد الناصر وفشل وفشلنا معه، ثم فرض علينا
الانتماء الوهابي الداعشي باسم الإسلام وفشل وفشلنا معه. لم يبق لنا
سوى مصريتنا. لم يبق لنا سوى الانتماء الوطني؛ الانتماء لمصر.

(6) ثقافة البترودولار واخلجنة المجتمع المصري

حتى منتصف القرن العشرين كانت علاقة المصريين بالخليج العربي علاقة روحية تقتصر في غالبا على زيارة الاماكن المقدسة في الحجاز (الجزء الغربي من المملكة العربية السعودية حاليا) وكانت زيارتهم لا تتخطى حدود مكة والمدينة، وعلى الرغم من إعلان تأسيس المملكة العربية السعودية عام 1902 على يدي الملك عبد العزيز آل سعود إلا أن هذه المنطقة من العالم ظلت معروفة لدى المصريين إلى وقت قريب ببلاد "الحجاز" أو الاراضي المقدسة. كما يعتقد البعض أن "الخليج" دولة عندما يقولون أن فلاناً قد سافر إلى الخليج مثلا.

وتعد هجرة المصريين لدول الخليج من الظواهر التي حظيت باهتمام إعلامي وبحثي كبير خلال الفترة الماضية باعتبارها ظاهرة إقتصادية حيث أنها مصدر رئيسي للعملة الصعبة من خلال تحويلات العاملين في الخليج، إلا أن الآثار الاجتماعية التي ترتبت على هذه الظاهرة كانت أقل حفا من حيث الاهتمام بدراستها، ولم تتجاوز

إسهامات الباحثين في هذا المجال دراسة أثر هجرة الزوج على مكانة المرأة في المجتمع، نظراً لكون الهجرة المصرية إلى دول الخليج في غالبيتها هجرة ذكورية.

لم يلتفت أحد إلى الآثار الاجتماعية والثقافية لهذه الهجرة إلا من خلال بعض المقالات والأحاديث الصحفية التي بدأت على استحياء في التنبيه للاختراق الثقافي، وربما أيضاً الفكري والعقائدي، المترتب على هذه الهجرة. ربما يعزى ذلك إلى الاعتقاد الراسخ لدينا، كمصريين، بأن ثقافتنا غير قابلة للاختراق وأنها نؤثر في محيطنا العربي ولا نتأثر به كثيراً، فنحن رواد الثقافة والفكر والتنوير بلا منازع، وإذا نازعنا في هذه الريادة أحداً فلن يكون بأي حال من الأحوال هؤلاء الذين كانوا بدأوا رُحلاً منذ فترة وجيزة من الزمن. لقد إستطعنا التعايش مع صنوف شتى من الغزاة والمستعمرين واستطعنا الحفاظ على هويتنا، فهل نخاف من هجرة مؤقتة الى هذه الممالك والمشيخيات؟

لكن، وربما لأول مرة في تاريخ مصر الممتد عبر الزمان لأكثر من ثلاثة الاف عام، يتم إختراق ثقافة هذا المجتمع الاصيل وبأيدي أبنائه،

والعجيب كما أسلفت الذكر أن هذا الاختراق لا تقوم به حضارة أقوى مثل الفرس أو الروم فيما مضى، ولكن حضارة - بل قل بداوة - لا يتجاوز عمرها أعمار آبائنا وأمهاتنا. ربما يحضرنى هنا ما يردده البعض دائماً من قبيل المزاح وأحياناً من قبيل الغضب من أن أمريكا ليس لها تاريخ وأنها حضارة بلا جذور، كل ذلك لان حضارتها لا تتجاوز خمسمائة عام، فما بالك بحضارة نفطية لا يتجاوز عمرها خمسة عقود؟

من العجيب أن أبناء مصر الذين "علموا قلب الحجر يوصف معارك الانتصار"، كما قال الشاعر الغنائي عبد الفتاح مصطفى، رحمه الله، على لسان سيدة الغناء العربي أم كلثوم، والذين علموا أهل البادية ألف باء الحضارة، والذين على أكتافهم قامت أكبر نهضة عمرانية في الإمارات القبليّة في بدايات عصر الثروة النفطية قبل أن يحل محلهم أبناء جنوب شرق آسيا من العمالة الرخيصة المطيعة، من العجيب حقاً أن تخترق قيم البداوة النسيج الثقافي والاجتماعي لهذا الوطن الضاربة جذوره في تراب وادي النيل منذ فجر التاريخ.

إن الاختراق الثقافي والاجتماعي الذي أحدثته هجرة المصريين لدول الخليج لا يمكن اختزاله في إرتداء الجلابيب البيضاء ذات الياقات المنتشاة أو اصطحاب الخادومات السريلانكيات والفلبينيات عند عودة الأسر المصرية لقضاء إجازة الصيف في مصر ولا إنتشار قيم المجتمع الاستهلاكي، فهذه التغيرات قد تكون انعكاسا غير مباشر للتحويلات العالمية حولنا، ولكن ما يؤلمنى هو انحسار قيم التسامح والمودة والرحمة والبساطة، والاهتمام بالمظهر دون الجوهر، فتكثر لافتات "مغلق للصلاة" على أبواب المحال التجارية ويكثر معها الغش التجاري، وينتشر الزي الخليجي بين النساء والفتيات، وتكثر مع ذلك أعداد الفتيات اللاتي ينتظرن أحباءهم على كورنيش النيل بهذا الزي، ويكثر خطباء القنوات الفضائية ومن يتجرأون على الفتوى، ويقل الالتزام الأخلاقي، ويكثر الحديث عن العبادات، وتمتبط الهمم ولا يُتقن العمل، ويكثر الاهتمام بالمظهر ويقل الاهتمام بالجوهر. إن النمط الثقافي والاجتماعي الوارد إلينا متستراً خلف الدنانير والريالات المبللة بعرق المصريين وجهدهم قد يكون أشد خطرا على المجتمع المصري من الغزو الثقافي القادم من الغرب؛ لكن كيف تم اختراقنا؟

البدايات

مع حقيقة أن المغتربين في الخليج يفوقون عدد السكان الأصليين، لا ينبغي للمرء أن يستهين بتأثير المغتربين على ثقافة الدول المستقبلية. وبالمثل، تتطلع دول الخليج، بدعم من عائدات النفط، إلى لعب دور في المنطقة العربية وخارجها. بعد نهاية عصر تأسيس الدول في خمسينات وستينات القرن العشرين، مارست دول الخليج دوراً مؤثراً في نشر ثقافتها وأفكارها. نظراً لتوجهاتها الدينية والمذهبية، عملت دول الخليج على نشر المذهب الجهادي الوهابي للإسلام في جميع أنحاء العالم الإسلامي، منذ غزو الاتحاد السوفيتي لأفغانستان حتى دعم عناصر داعش في سوريا بعد "الربيع العربي" الذي بدأ هناك في آذار/مارس 2011.

لا ينبغي للمرء أن يتجاهل التفاعل بين الهجرة والعولمة والدور الذي تلعبه شبكات المهاجرين في تعزيز تدفقات السلع ورؤوس الأموال والمعارف والخبرات عبر الحدود (Rapoport 2016). أدت العولمة، التي أصبحت متاحة من خلال تكنولوجيات الاتصالات والمعلومات الجديدة، وارتفاع وتيرة الحراك البشري إلى انتشار أنماط

استهلاكية جديدة ومختلفة، ففي القرى النائية في دلتا النيل وفي صعيد مصر، يمكن للمرء أن يلاحظ العدد المتزايد من الأطباق اللاقطة المتصلة بأجهزة التلفزيون التي تجعل القنوات الدولية في متناول الجميع دون حجب أو منع، أضف إلى ذلك إتاحة الإنترنت من خلال الهواتف المحمولة التي أصبحت في أيدي الجميع. لا شك أن ما تبثه تلك القنوات على مدار الساعة وما تعرضه مواقع الانترنت من أنماط حياتية ومعرفية متعددة يؤثر على سلوك الأسرة المصرية وتصوراتها حول الهجرة والسفر والترحال والإقامة والعمل في الخارج.

تقليدياً، من المعروف جيداً في أدبيات الهجرة أن كل تيار للهجرة لديه تيار للهجرة مضاد له في الاتجاه (Lee, 1966; United Nations) بالمثل، يمكن القول أن كل تيار من تيارات الانتشار الثقافي له تيار انتشار ثقافي مضاد. بعبارة أخرى، لا ينقل المهاجرون ثقافتهم وممارساتهم الثقافية إلى مناطق المقصد فقط، بل يساهمون أيضاً في تدفق ثقافي مضاد من البلد المهاجر إليه إلى بلد المنشأ. كما أن دول

المقصد تعمل على نشر ثقافتها كي تكتسب مزيداً من القوة الجيوسياسية في محيطها الإقليمي وفي العالم.

لا يقوم المهاجرون بتحويل الأموال والتحويلات العينية فقط لبلدانهم، بل يقوم المهاجرون، بالإضافة لذلك، بتحويل/نقل الأفكار والسلوكيات، هذه التحويلات غير المادية يمكن أن تؤثر على بلدان المنشأ بالإيجاب أو بالسلب. تطلق الباحثة بيغي ليفيت على التحويلات غير المادية "التحويلات الاجتماعية" وتُعرفها على أنها "الأفكار والسلوكيات والهويات ورأس المال الاجتماعي الذي يتدفق من مجتمعات المهجر إلى مجتمعات المنشأ" (Levitt، 1998: 927).

كما تحدد الباحثة ثلاثة أنواع من التحويلات الاجتماعية؛ وهي:

(1) الهياكل/البنى المعيارية (الأفكار، والقيم، والمعتقدات)، و

(2) نُظْم الممارسة (الممارسات التي تشكلها الهياكل/البنى المعيارية)، و

(3) رأس المال الاجتماعي (Levitt، 1998).

بالإضافة إلى عائدات النفط، يمكن رصد حدثين هامين أسهما في نشر ثقافة المملكة العربية السعودية ومشیخات الخليج خارج نطاقهم

الجغرافي، الحدث الأول هو انتصار الثورة الإسلامية الإيرانية عام 1979، والحدث الثاني هو الغزو السوفيتي لأفغانستان في نفس العام. على الرغم من اتباع النموذج المصري عند وضع التشريعات والدساتير الخليجية بصفة عامة، فإن المملكة العربية السعودية تمثل حالة شاذة في هذا المجال حيث تتبنى المملكة الشريعة الإسلامية، كهوية وممارسة، طبقاً للاتفاق غير المعلن بين الأسرة الحاكمة والأسرة الوهابية.

لتبرير مشاركتها في الحرب في أفغانستان والدفاع عن نفسها من إيران الجارة التي تعتبرها دول الخليج المصدر الرئيس للتهديد بالنسبة لها، اتجهت دول الخليج إلى تعزيز إرثها الديني من خلال المشاركة الكثيفة في أفغانستان لهزيمة الاتحاد السوفيتي الكافر اللاديني - من وجهة نظرها في ذلك الوقت. من أجل زيادة الدعم للمجاهدين الأفغان في حربهم ضد الاتحاد السوفيتي، ومن أجل معالجة العجز الديموغرافي الذي تعاني منه، سعت مشيخيات الخليج لنشر الإسلام الجهادي العنيف على نطاق واسع خارج شبه الجزيرة العربية.

من أجل القضاء على منافسيه من الاشتراكيين والشيوعيين، سمح الرئيس المصري محمد أنور السادات الذي تولى الحكم بعد وفاة جمال عبد الناصر عام 1970، سمح للسلفيين الإسلاميين والإخوان المسلمين أن يعودوا للمشهد مرة أخرى بعد فترة طويلة من الكبت والعمل في الظلام في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر. نشط السلفيون



والإخوان في صفوف الجامعات المصرية وفي المجتمع المصري بشكل عام. تزامن الانفتاح الذي شهدته مصر تجاه السلفية الدينية مع

التوجه الديني المتشدد الذي تبنته المملكة العربية السعودية ومشیخات الخلیج الأخرى وسعت إلى تصديره.

تزامن ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر 1973 والطفرة الاقتصادية الكبيرة في الخلیج مع تيار هجرة عمالة قوي من مصر نحو المملكة العربية السعودية ودول الخلیج الأخرى. أدت النظرة الدينية المحافظة للغاية للنخبة الخلیجية والرغبة في لعب دور سياسي وثقافي في المنطقة إلى تبني ما يمكن تسميته بالهوية الإسلامية ونشر ما يمكن أن نطلق عليه الأفكار الإسلامية على نطاق واسع (Rabbat, 2014).

انطلاقاً من مفهوم التحويلات الاجتماعية الذي صكته بيغي ليفت، والعلاقة بين الهجرة والثقافة في ظل العولمة، تهدف هذه الدراسة إلى التعرف على تأثير التحويلات غير المالية التي يقوم المهاجرون والمهاجرون العائدون بتحويلها لبلدانهم وتقييم تأثيرها على المجتمع المصري.

بعد هذه المقدمة، ينقسم هذا الفصل إلى أربعة مباحث. أعرض في المبحث الثاني لمحة عامة عن الهجرة في دول الخلیج. يخصص المبحث الثالث لمرحلة الاستيعاب الثقافي في دول الخلیج، لا سيما

قبل عام 1974، ثم أستكشف في المبحث الرابع ملامح مرحلة الانتشار الثقافي الخليجي من خلال المهاجرين والمهاجرين العائدين، وكذلك المحاولات المباشرة لتلك الدول لنشر ثقافتها من خلال وسائل الإعلام، ثم أنتهي إلى خاتمة قصيرة.

الهجرة في الخليج

بدأت الهجرة الكبيرة إلى دول الخليج الغنية بالنفط في السبعينيات، ونمت نسبة الأجانب في دول مجلس التعاون الخليجي 1 بشكل متواصل على مدى العقود الماضية. ارتفع عدد الأجانب في دول مجلس التعاون الخليجي بشكل طفيف من 35.4 بالمائة عام 1990 إلى 36.6 بالمائة عام 2005. في عام 2010، بلغت نسبة الأجانب 45.9 بالمائة، ثم استمرت في الزيادة تدريجياً حتى وصلت إلى 50.9 بالمائة عام 2017 (انظر الجدول 3 أدناه). ارتفع العدد الإجمالي للمهاجرين في دول مجلس التعاون الخليجي من 8.2 مليون في عام 1990 إلى 20.5 مليون في عام 2000، ثم ارتفع إلى 28.1 مليون عام 2017. تراوحت نسبة المهاجرين إلى إجمالي عدد السكان على مستوى الدولة عام 2017 بين 37.0 بالمائة في المملكة العربية السعودية و88.4 بالمائة في الإمارات العربية المتحدة. في البحرين وعمان، كان المهاجرون يشكلون أقل من 50 بالمائة من السكان في عام 2017، في حين شكل المهاجرون في الكويت وقطر 75.5 بالمائة و65.2 بالمائة على التوالي.

1 يضم مجلس التعاون الخليجي ست دول هي البحرين والكويت وعمان وقطر والمملكة العربية السعودية والإمارات العربية المتحدة.

على عكس دول الغرب، لا تسمح دول الخليج لغير المواطنين بالاندماج أو الإقامة الدائمة أو الحصول على الجنسية أو أي من حقوق المواطنة بطول مدة الإقامة. كما أدت القيود المفروضة على جمع شمل الأسر إلى فرص محدودة لجمع شمل الأسر في بلدان مجلس التعاون الخليجي. على سبيل المثال، تنص المادة التي تحكم لم شمل الأسرة في دولة الإمارات العربية المتحدة، المادة 31 (دال) من القرار الوزاري رقم 360/1997، على أنه "يجوز منح لم شمل الأسرة لزوج الأجنبي المكفول إذا كان راتبه الشهري 3000 درهم إماراتي أو أكثر، ويتم توفير السكن من قبل صاحب العمل، أو إذا كان راتبه الشهري هو 4000 درهم (باستثناء السكن)". في الواقع، أكثر من 50 بالمائة من العمال يكسبون أقل من 3000 درهم شهرياً (Air-De Bel، 2015). بالإضافة إلى ذلك، تعتبر دول مجلس التعاون الخليجي المهاجرين عمالة تعاقدية وليسوا مهاجرين. تقوم دول مجلس التعاون الخليجي بإعادة استقدام عمالتها الأجنبية بانتظام لتجنب أي مطالبة بالتجنس.

على الرغم من السياسات التي لا تشجع على التجنس ولم شمل الأسر، ونظراً لأن المهاجرين يشكلون نسبة كبيرة من السكان، فإن دول مجلس التعاون الخليجي لا تستطيع تجنب التأثير الثقافي والمجتمعي للأجانب. يأتي المهاجرون في دول مجلس التعاون الخليجي من خلفيات ثقافية مختلفة. كما هو مبين في الجدول 4 أدناه، فإن دول مجلس التعاون الخليجي تستضيف جنسيات مختلفة، ويمكن تحديد ثلاث مجموعات من البلدان المرسلّة: (1) المهاجرون من شبه القارة الهندية، (2) المهاجرون من جنوب شرق آسيا، (3) المهاجرون من المنطقة العربية. يأتي المهاجرون من شبه القارة الهندية بشكل رئيسي من الهند وبنغلاديش وباكستان، ويبلغ عدد المهاجرين الهنود 9.3 مليوناً، يمثلون نحو 31 بالمائة من إجمالي المهاجرين في الخليج. يأتي المهاجرون من بنغلاديش في المرتبة الثانية بنسبة 11.2 بالمائة من مجموع المهاجرين، يليهم المهاجرون الباكستانيون الذين يمثلون 11 بالمائة من مجموع المهاجرين، وبذلك يبلغ عدد المهاجرين من شبه القارة الهندية قرابة 16 مليون مهاجر يمثلون 53.3 بالمائة من المهاجرين في الخليج.

الجدول 3

المهاجرون (بالملايين) ونسبتهم إلى مجموع السكان، بلدان مجلس التعاون الخليجي، 1990-2019

النسبة المئوية للمهاجرين إلى مجموع السكان				البلد
2019	2010	2000	1990	
0.7 (45.2%)	0.7 (53.0%)	0.2 (36.0%)	0.2 (34.9%)	البحرين
3.1 (72.1%)	1.9 (62.6%)	1.1 (55.1%)	1.1 (51.3%)	الكويت
2.3 (46.0%)	0.8 (26.8%)	0.6 (27.5%)	0.3 (16.8%)	عُمان
2.2 (78.7%)	1.5 (78.5%)	0.4 (60.7%)	0.3 (65.0%)	قطر
13.5 (38.3%)	8.4 (30.7%)	5.3 (25.5%)	5.0 (30.8%)	السعودية
8.6 (87.9%)	7.3 (85.6%)	2.4 (78.1%)	1.3 (71.5%)	الامارات
30.0 (52.0%)	20.5 (45.6%)	10.1 (34.3%)	8.2 (35.6%)	دول الخليج

المصدر: حسب بواسطة المؤلف من: الأمم المتحدة، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية (2019) اتجاهات المهاجرين الدوليين: تنقيح عام 2019، شعبة السكان، الأمم المتحدة، نيويورك.

الجدول 4
عدد ونسبة المهاجرين في دول مجلس التعاون الخليجي حسب
الجنسية، 2019.

النسبة المئوية	الاجانب	البلد
31.1	9,326,699	الهند
11.2	3,346,430	بنغلاديش
11.0	3,314,910	باكستان
8.6	2,592,793	مصر
7.4	2,226,123	إندونيسيا
5.5	1,641,036	الفلبين
3.6	1,073,820	اليمن
3.0	906,147	سوريا
2.9	868,821	سري لانكا
2.7	800,779	نيبال
2.3	699,808	السودان
1.7	523,680	الأردن
1.6	482,513	أفغانستان
7.3	261,159	بلدان أخرى
100.0	30,001,514	مجموع

المصدر: محسوب بواسطة المؤلف من الامم المتحدة، إدارة الشؤون الاقتصادية والاجتماعية (2019) اتجاهات المهاجرين الدوليين: تنقيح عام 2019، شعبة السكان، الأمم المتحدة، نيويورك.

المجموعة الرئيسية الثانية من المهاجرين تتمثل في المهاجرين من جنوب شرق آسيا. المهاجرون من جنوب شرق آسيا يأتون أساساً من أربعة بلدان؛ إندونيسيا والفلبين وسريلانكا ونيبال. ويمثل المهاجرون من هذه البلدان الأربعة حوالي 18.5 بالمائة من مجموع المهاجرين في الخليج. بعد الاعتماد الكبير على المهاجرين العرب في سبعينيات القرن الماضي وبعد أن كانوا يمثلون أكثر من 75 بالمائة من المهاجرين حينها، انخفضت نسبة المهاجرين العرب بشكل حاد إلى أقل من 25 بالمائة في عام 2019. يمثل المهاجرون من الدول العربية الرئيسية المرسلّة إلى أقل من 20 بالمائة من مجموع المهاجرين في الخليج. ويمثل المصريون 8.6 بالمائة من إجمالي المهاجرين، يليهم اليمنيون (3.6 بالمائة)، والسوريون (3.0 بالمائة)، والسودانيون (2.3 بالمائة)، والأردنيون (1.7 بالمائة).

مرحلة الاستيعاب الثقافي في الخليج

يرتبط تاريخ دول الخليج المعاصرة بشكلٍ رئيسي بارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر 1973. يعود الطلب على العمل إلى تشكيل النظامين الإداري والتشريعي في الخمسينيات وما بعدها. كانت

مساهمة مصر في إقامة النظم الإدارية والتشريعية في الخليج حيوية. بعد استقلالها عن الإمبراطورية العثمانية في عام 1922، أصبحت مصر قوة رئيسية داخل المنطقة العربية. أدت جهود التحديث واسعة النطاق طوال القرن التاسع عشر إلى تشكيل طبقة من النخبة المتعلمة في مصر. لم يكن لدول الخليج أي دور في التطور المبكر للثقافة العربية الحديثة.

دأبت مصر على الاضطلاع بدور قيادي في تعزيز التعليم على المستوى الإقليمي. العديد من المهنيين المصريين يسافرون إلى الخليج للمساهمة في التنمية الاقتصادية والاجتماعية لتلك الدول. مع هيمنة القومية العربية على مصر بعد الحرب العالمية الأولى، أصبحت هجرة المصريين من أصحاب المهارات العالية مشروعاً سياسياً يركز في المقام الأول على التعليم والتنمية في المنطقة العربية. قامت الحكومة المصرية بتمويل بناء المدارس في جميع أنحاء المنطقة وزوّدتها بمعلمين وإداريين مصريين مؤهلين (Tsourapas, 2018).

كان المدرسون المصريون في دول الخليج في الخمسينات وحتى نهاية الثمانينات من القرن العشرين هم الجنسية الرئيسية السائدة في جميع

دول الخليج. لم يكن تأثير المعلمين المصريين على التدريس فحسب، بل أيضاً على تشكيل الهوية الحديثة للشعوب في دول الخليج. كانت الجامعات المصرية في ذلك الوقت مفتوحة لاستقبال الطلاب من دول الخليج وتقديم فرص ومنح سخية لهم. كانت الطليعة الأولى من رجال الحكم وكبار المسؤولين والوزراء والإداريين في دول الخليج من خريجي المعاهد التعليمية المصرية، أو على الأقل درسوا في مدارس بلدانهم التي كانت الغالبية العظمى من معلميها من المصريين.

تجدر الإشارة أيضاً إلى أن عدداً كبيراً من الأمراء والحكام والإداريين رفيعي المستوى في الخليج قد استكملوا دراساتهم في الجامعات المصرية. على سبيل المثال، حصل غازي القصيبي، وزير الصناعة والكهرباء في المملكة العربية السعودية (1976-1983) على شهادة في القانون من جامعة القاهرة عام 1961. علاوة على ذلك، حصل سلطان بن محمد القاسمي، حاكم إمارة الشارقة وعضو المجلس الأعلى الاتحادي لدولة الإمارات العربية المتحدة على شهادة في الهندسة الزراعية من جامعة القاهرة عام 1971. بالإضافة إلى ذلك، وتقديراً للمساهمات التعليمية المصرية، قام أمير قطر السابق حمد بن خليفة

آل ثاني بزيارة القاهرة في نوفمبر 2010 لتقديم واجب العزاء لأسرة معلمه الخاص الأستاذ أحمد منصور.

توجهت الدول العربية التي حصلت على استقلالها إلى مصر بشكل عام للحصول على المساعدة في صياغة دساتيرها ومدوناتها القانونية، والموظفين في كليات الحقوق لديها، والعمل كقضاة وحتى كمحامين (Podeh and Winckler, 2004). وعلى مستوى تقديم المساعدة الفنية في إنشاء النظم القانونية في الخليج، يلاحظ أن الكويت والبحرين وقطر والإمارات العربية المتحدة قد كُتبت دساتيرها بشكل عام بناءً على نموذج مشترك؛ يعتمد بشكل كبير على المبادئ التي يتضمنها الدستور المصري (Ballantyne, 1986). علاوة على ذلك، تم اعتماد القانون المدني المصري من قبل معظم دول الخليج (Harding, 2017).

على الرغم من أهمية المساهمات المصرية في تأسيس النظم التعليمية والقانونية في دول الخليج في مرحلة التشكيل المبكر للدول الحديثة في الخليج في الخمسينات والستينات، فإن المساهمة والتأثير الرئيسيين لمصر وقوتها الناعمة كانت ثقافية. أنتجت مصر أكثر من

90 بالمائة من الأفلام العربية الطويلة والقصيرة في القرن الماضي. تم إنتاج أكثر من 3000 فيلم في مصر. مثل هذه الأفلام شكلت الذائقة العامة لغالبية الناطقين بالعربية في الشرق الأوسط. 1. لظالما هيمنت مصر على صناعة السينما العربية، ووزعت أفلامها وشاهدتها الجماهير الناطقة بالعربية في جميع أنحاء المنطقة.

على الرغم من المنافسة الأخيرة من الإنتاج السوري والتركي المدبلج، لا تزال مصر تعتبر صناعة التلفزيون الأكثر تأثيراً في العالم العربي، حيث يشاهد جمهور التلفزيون في جميع أنحاء المنطقة البرامج الدرامية والمسلسلات والمسرحيات الموسيقية والبرامج الكوميديّة التي تنتجها مصر، فضلاً عن البرامج الحوارية المسائية الأكثر شعبية - وكلها تبث باللهجة المصرية (Youssef, 2017).

مرحلة الانتشار الثقافي للخليج ومجلس المجتمع المصري 2

في هذا القسم أستكشف أثر الهجرة على جوانب مختارة من المجتمع المصري؛ أركز بالأساس على تأثير الهجرة على الممارسات الدينية

1 بدأت صناعة السينما المصرية في مصر في الثلاثينات من القرن العشرين.

2 يستند هذا القسم بشكل كبير على مقال للمؤلف نشر في دورية 2017 Remittances Review, (1):2

29-23 حول التحويلات غير النقدية للمصريين بالخارج.

ولباس/ملايس المصريين، وممارساتهم الدينية، فضلاً عما يمكن أن أطلق عليه خلجنة المجال العام في مصر.

الممارسات الدينية الوافدة ومكانة المرأة

بما أن معظم المهاجرين المصريين المتوجهين إلى بلدان البترودولار في شبه الجزيرة العربية هم من الذكور الذين يتركون أسرهم خلفهم عادةً، فإن أفراد الأسرة الآخرين يتولون مسؤوليات المهاجرين في بلد المنشأ، مثل العمل الزراعي ورعاية شؤون الأسرة. إن غياب الزوج يجبر المرأة على أن تتولّى إدارة شؤون الأسرة والتعامل مع مؤسسات المجتمع المختلفة، ما يؤدي إلى تمكين المرأة وجعلها قادرة على الإحاطة بظروف المجتمع من حولها (Brink 1991; Zohry 2002). في المقابل، أثرت الهجرة إلى منشأ الوهابية في المملكة العربية السعودية، على سبيل المثال، على المجتمع المصري بشكل سلبي، حيث تم إنتاج وتعميم نسخة جديدة وحادة من السلوك الاجتماعي والديني لم تعدها مصر من قبل. أدت تلك النسخة الجديدة الوافدة مع العمالة العائدة إلى ميل المجتمع أكثر نحو الأصولية والتشدد، فضلاً عن تهميش دور

المرأة في المجتمع ومحاولة إقناع المرأة بأن دورها ينحصر فقط في الإنجاب والتربية وإمتاع الزوج وتلبية رغباته.

قواعد اللباس/الملبس والهجرة

تُعد الجلابية اللباس النموذجي للذكور المصريين في المناطق الريفية، الجلابية هي ثوب مصري تقليدي. تختلف الجلابية المصرية عن الثوب العربي في أن الجلابية تتميز بالاتساع الذي يسمح بحرية أكبر للحركة، كما أن ليس لها ياقة وتمتاز باتساع أكمامها، مع ميل للاتساع من أعلى إلى أسفل. في بعض المناطق يمكن ملاحظة اتساع أكبر للأكمام كلما اتجهنا ناحية الكف. ألوان الجلابية غالبا ما تكون داكنة. الجلابية عادة ما تكون من لون واحد (سادة) أو مخططة طولياً، وتصنع عادة من المنتج الوطني من الأقمشة مثل القطن أو الكتان لتناسب مع الطقس الحار الرطب في مصر. مع الهجرة الكثيفة إلى دول الخليج في منتصف سبعينيات القرن العشرين، بدأ المصريون العاملون في الخليج في إدخال الجلابية الخليجية لمصر. الجزء العلوي من الجلابية الخليجية هو تقريبا نفس القمصان الكلاسيكية الغربية حيث الأكمام الضيقة والياقة المنشأة. تتوافر هذه الجلابية عادة بلون

واحد هو اللون الأبيض. الجلابية الخليجية تصنع عادة من البوليستر بالكامل، أو مع إضافة نسبة صغيرة من القطن فيما ندر. أصبحت الجلابية الخليجية من ضمن المكونات الرئيسية لأمتعة المهاجرين العائدين من الخليج لمصر، سواءً للاستخدام الشخصي أو للإهداء لأفراد العائلة والأقارب والأصدقاء في مصر.

على الرغم من أن هذا النوع من اللباس غير مناسب للطقس الرطب والمترب والحرار في مصر، إلا أن استخدام هذا اللباس أصبح نمطاً عاماً تقريباً بين الذكور، ليس فقط في المناطق الريفية ولكن أيضاً في المناطق الحضرية، وتم، في غفلة من الزمن، استبدال اللباس التقليدي المصري بهذه الجلابية البيضاء الواردة من الخارج. في المناطق الحضرية، حلت تلك الجلابية البيضاء محل البيجاما الغربية، حيث أصبحت الجلابية، التي كانت تمثل لباس الطبقات الدنيا في الحضر وغير المتعلمين، اللباس الرئيس للذكور في المنازل وفي محيطهم السكني وللصلاة في المساجد. من المهم الإشارة هنا إلى إن أهم دافع للذكور للتحويل من الجلابية المصرية التقليدية، أو حتى البيجاما الغربية في الحضر، إلى الجلابية الخليجية هو الربط

المتخيّل بين تلك الجلابية البيضاء والإسلام. يتمثل الربط المزعوم بين الجلابية البيضاء الواردة من الخليج والإسلام، كما يعتقد البعض، في أن هذا الزي قادم من الأراضي المقدسة، مهد الإسلام وأنه يفضّل الذهاب لصلاة الجمعة بالجلابية البيضاء. مع الممارسة المستمرة، اكتسب هذا الزي الوارد من الخارج قدسيّة دينية ليحل محل الجلابية الوطنية.

عندما هاجر الذكور المصريون إلى دول الخليج وارتبطوا باللباس الأبيض للذكور الذي شاهدوه هناك، وجدوا أن النساء في تلك البلاد يرتدين الزي الأسود الذي يغطين بالكامل. نظراً لأنهم لم يكونوا على دراية كاملة بثقافة تلك المجتمعات الخارجة لتوّها من البداوة، تصوّر المهاجرون المصريون في ذلك الوقت أن هذا اللباس الأسود هو الزي الرسمي/المثالي/العادي للمرأة المسلمة، فسعوا لاستيراد/لاستخدام هذا اللباس لنساءهم أيضاً لكي تكتمل صورة "الأبيض والأسود".

تزامن هذا الاتجاه مع تخفيف الضغط على الحركات الإسلامية في عهد الرئيس الراحل محمد أنور السادات بعد حظر طويل لهم في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، ومن ثم فقد حل الرداء

الأسود البدوي، تدريجيًا، محل اللباس التقليدي للمرأة الريفية وامتد، بعد ذلك، ليشمل جميع شرائح المجتمع المصري في الريف والحضر. من المهم هنا أن نشير إلى أن الرداء البدوي الوارد من الخارج حل محل ثوب المرأة الغربي في المناطق الحضرية، ليس فقط لأسباب دينية ولكن في بعض الأحيان لأسباب اقتصادية حيث أن الجلباب البدوي يكاد يكون متشابهًا ويمكن ارتداؤه عدة مرات دون الحاجة إلى اقتناء مجموعة كبيرة منها مقارنة باللباس الغربي الذي يفترض اقتناء المرأة لمجموعة من الأنماط والألوان المختلفة منه لمناسبات مختلفة وكذلك لإظهار المكانة الاجتماعية لمرتدياته.

إسلام بلا مسلمين.. ومسلمون بلا إسلام

"ذهبت للغرب فوجدت إسلامًا ولم أجد مسلمين.. ولما عدت للشرق وجدت مسلمين ولكنني لم أجد إسلامًا!" هذه المقولة الشهيرة المنسوبة للإمام محمد عبده (1849-1905)، الذي يعتبر مؤسس الحداثة الإسلامية الذي اختتم زيارته لأوروبا بهذا الاقتباس الذي يمكن أن يختصر مسألة التمسك الشكلي بالطقوس الدينية دونما الجوهر. فالمهاجرون الذكور العائدون إلى مصر بعد قضاء سنوات عديدة في

المملكة العربية السعودية أحضروا معهم مدونة ممارسة صارمة للإسلام مزوجة بالثقافة البدوية القاسية إلى مجتمع زراعي متسامح (زهري 2006). كانت النتيجة زيادة في ممارسة الشعائر والطقوس الدينية مع غلظة أكثر وتسامح أقل. علاوة على ذلك، استقطب الدعاة الجدد الذين يتبعون الأفكار الوهابية، بعد هجرتهم إلى المملكة العربية السعودية وعودتهم إلى مصر، نسبة كبيرة من الناس في مصر. بالإضافة إلى ذلك، أنشأ هؤلاء قنواتهم التلفزيونية الخاصة وبدأوا في نشر أفكارهم الحديثة الحادة الصارمة على نطاق واسع بين أتباعهم. من الملاحظ أيضا بالنسبة لهؤلاء الدعاة الجدد من أصحاب الجلايب البيضاء أن غالبيتهم ليسوا من خريجي جامعة الأزهر، وأن كثيراً منهم لم يدرس علوم الدين في المدارس المتخصصة، بل أن بعضهم لم يحصل على الدرجة الجامعية وأن بعضهم قد اكتفوا بما كانوا يتلقونوه شفاهةً على أيدي شيوخ الوهابية أثناء عملهم في الخليج، هذا بالإضافة إلى أنهم لا يرتدون اللباس الرسمي الأزهري، لكنهم يرتدون نفس لباس دعاة الوهابية في المملكة العربية السعودية (Zohry, 2012).

مع سهولة الاتصالات وانتشار وسائل الإعلام الجديدة (وسائل التواصل الاجتماعي والانترنت)، أصبح هؤلاء الدعاة الدينيين نجوم مجتمع مثل نجوم السينما ولاعبي كرة القدم، وتمكنوا من استقطاب الآلاف والملايين من المعجبين على وسائل التواصل الاجتماعي مثل فيسبوك وتويتر، وأصبحت صورهم، على الرغم من حقيقة أنهم ينكرون شرعية تصوير الجسم البشري، حلت محل خلفيات المطربين ونجوم السينما الشهيرة في الهواتف المحمولة وشاشات الحاسب. أضف إلى ذلك، أن اقتباسات من برامجهم التلفزيونية أصبحت نغمات للهواتف المحمولة التي يحملها المريدون؛ جرعة مفرطة من السلوك الديني دون تأثير يذكر على التنمية الاجتماعية والاقتصادية.

أدت تلك الجرعة المفرطة من السلوك الديني إلى فتنة طائفية، ليس فقط بين المسلمين والمسيحيين الذين كانوا يعيشون جنباً إلى جنب لمئات السنين، ولكن أيضاً بين المسلمين أنفسهم. كان المسلمون منقسمين إلى طوائف وفقاً لممارستهم، وليس وفقاً لمعتقداتهم. الآن، أصبح المسلمون المصريون سلفيين (وهابيين تقريباً)، وصوفيين، وسنة (ينتمون أساساً للأزهر)، وليبراليين، وطوائفٍ أخرى كثيرة. بعد

200 عام من تأسيس مصر الحديثة كدولة قومية، تحوّل الخطاب الاجتماعي الآن من الحديث حول حقوق المواطنة المتساوية إلى الحديث حول تأسيس دولة دينية.

خليفة المجال العام

تعدّ مصر رائدة الثقافة العربية بامتياز. خلال حوالي مائة عام من الإنتاج السينمائي، أنتجت مصر أكثر من ثلاثة آلاف فيلم سينمائي أو ما يعادل عشر مرات إنتاج الدول العربية مجتمعة خلال نفس الفترة. أضف إلى ذلك الإنتاج الإذاعي والإعلامي، والأدبي، وكذلك المطربين المعروفين الذين شكّلوا الذائقة العربية من المحيط إلى الخليج، والموسيقين والملحنين، والجامعات المصرية الرائدة التي كانت قلة الباحثين عن التعليم العصري، خاصة في خمسينيات وستينيات القرن العشرين. هذا بالإضافة للمعلمين المصريين المبتعثين للعمل في البلدان العربية. من خلال كل تلك الأدوات، تمكنت مصر من تمصير المجال الثقافي العربي. بفضل هذه الجهود والأدوات الناعمة، أصبحت اللهجة العامية المصرية مفهومة على نطاق واسع وتحظى بتقدير كبير في جميع أنحاء المنطقة العربية.

في الوقت الحاضر، وبسبب الهجرة والعودة، بدأت ثقافة غريبة من شبه الجزيرة العربية تنافس ثقافة المصريين العريقة؛ ليس فقط من الناحية الفنية والثقافية، لكن من الناحية الدينية أيضاً (زهري 2006).

تمكنت الأصوات الحادة والغريبة على الذائقة المصرية التقليدية من قراءة القرآن السعوديين من أمثال السديس والشريم من إبعاد قراء القرآن المصريين فانتحي التميّز من أمثال عبد الباسط عبد الصمد ومحمد رفعت وغيرهما عن المشهد، خاصة بين أوساط الشباب. علاوة على ذلك، فإن القنوات التلفزيونية الفضائية التي أسسها ودفع ثمنها رجال أعمال خليجيون قد غزت المجال الإعلامي المصري. لم يقتصر الأمر على وسائل الإعلام فحسب، بل تأثر المطبخ المصري أيضاً بالسلوك المستورد وأصبحت المطاعم الخليجية في القاهرة جزءاً لا يتجزأ من منظومة المطاعم في القاهرة. فيما يتعلق بالتسوق، أصبحت مراكز التسوق والشوارع الرئيسية مليئة بالمحال التجارية التي تبيع الجلباب البدوي الخليجي.

فيما يتعلق بالكتب، فإن الكتب الأكثر مبيعاً في معرض القاهرة السنوي للكتاب، إلى وقت قريب، كانت تأتي عادةً من دور النشر في المملكة العربية السعودية والشركات التابعة لها في القاهرة. كانت مواضيع معظم الكتب حول الممارسات الوهابية المتشددة التي تتناول بالأساس قضايا النساء والحجاب والنقاب والجهاد والولاء والبراء وفقه ابن تيمية. كانت هذه الكتب تباع بأسعار لا تساوي تكلفة المواد المستخدمة في إنتاجها، ما يعني أنها مدعومة، ليس من قبل الحكومة المصرية بالطبع.

أضف إلى ذلك التأثير على اللهجة العامية المصرية السلسلة من خلال إدخال بعض التعابير الخليجية والعربية الفصحى على شاكلة رفض التحية المصرية "صباح الخير" و"مساء الخير" واستبدالها بتحية الإسلام واستهجان من يصر على استخدام التعابير المصرية. من الأمثلة على ذلك أيضا إحلال لفظ "سيارة" بدلا من "عربية" و"زوجتي وزوجي" بدلا من "مرااتي أو المدام أو جوزي" و"بالله عليك" بدلا من "والنبي" أو "من فضلك" أو "لو سمحت" وغيرها. الأسوأ من تغيير بعض الألفاظ أو العبارات هي الرسالة المبطنّة

ببطلان واستهجان تلك الصيغ من التحايا أو التعريفات وربطها بمخالفة التعاليم الدينية التي يدّعيها غلاة العائدين من الخليج. انعكس الغزو الثقافي أيضا على إعادة استحضار أسماء ذات صبغة دينية أو ربما بدويّة على سبيل التبرّك والإصرار على نطق أسماء مصرية شائعة مثل عبد الله وفاطمة وزينب باللغة العربية الفصحى.

التحكم في المحتوى الإعلامي والفني

على الرغم من أنها ليست، بأي حال من الأحوال، مساهماً في المحتوى الفني أو الإنتاج الإعلامي، إلا أن دول الخليج بدأت في وقت مبكر في السيطرة على الإنتاج الفني المصري فضلاً عن تطوير وسائلها الإعلامية الخاصة. اتبعت دول الخليج مجموعة من التكتيكات للسيطرة على المنتجات الفنية للآخرين وتعديلها وإعادة نشرها. أقدم أدناه نماذجاً من تلك المحاولات.

تأسيس المسابقات والمهرجانات ذات الجوائز المالية الضخمة

من أجل جذب الفنانين والمفكرين من مصر وبلاد الشام، بدأت دول الخليج في تأسيس مسابقات ومهرجانات فنية وثقافية تحت رعاية حكام وأمراء هذه المشيخيات وخصصت لها جوائزاً ومكافآت

ضخمة مبالغٌ فيها. من الأمثلة على هذه الجوائز جائزة كتارا القطرية للرواية العربية، وجائزة الشيخ زايد الإماراتية للكتاب، وجائزة الملك فيصل العالمية السعودية بأكبر جائزة مالية قدرها 200 ألف دولار أمريكي.

تأسيس منشورات ودوريات ثقافية وعلمية

من الاستراتيجيات الأخرى لتعزيز نفوذ مشيخيات الخليج نشر وتوزيع المطبوعات الفاخرة بأسعار زهيدة لا تساوي تكلفة توزيع تلك المطبوعات. يلاحظ أن غالبية الأعمال المنشورة في تلك المطبوعات الفاخرة تعود عادة لمؤلفين مصريين أو لبنانيين أو سوريين. تقوم المؤسسات الثقافية في تلك المشيخيات أيضا بنشر الكتب الدولية المترجمة. من أشهر الأمثلة على هذا النوع من التأثير الثقافي منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب في دولة الكويت.

شراء المنتج الفني والثقافي والتلاعب في المحتوى

في محاولة من مشيخيات الخليج لـ "تهذيب" المنتج الفني والإعلامي المصري واللبناني وغيرهما من الدول ليكون متوافقاً مع فهمهم المتصور للإسلام، دخل المستثمرون الخليجيون في مجال الإعلام، عادة ليس

بغرض الإنتاج، لكن بإعادة نشر أعمال الآخرين بعد أن يعملوا سيف رقابتهم عليها من خلال إلغاء كل ما هو حميمي أو إنساني مثل قطع القبلات والمشاهد الحميمة التي يُنظر لها على أنها انتهاك للتوجه الإسلامي وفقاً للأفكار الوهابية الصارمة وبطريقة تشوّه هذه المنتجات الفنية الأصلية ولا تراعي السياق الدرامي أو التاريخي لتلك الأعمال. من الأمثلة على ذلك القنوات الفضائية لعبد الله كامل وشبكة الإعلام التابعة له، شبكة تلفزيون العرب ART التي تأسست عام 1993.

إنشاء شبكات تلفزيونية خاصة

بالإضافة إلى السيطرة على نشر المنتج الثقافي والفني الذي تنتجه الدول الأخرى بعد فرض الرقابة على محتواه وتشويهه في كثير من الأحيان، بدأت مشيخيات الخليج في إطلاق قنوات الأخبار والترفيه الخاصة بهم مثل قناة الجزيرة (التي تأسست عام 1996) المملوكة للحكومة القطرية ومركز الشرق الأوسط للبث (MBC) الذي تأسس عام 1991، والمملوك للأمير السعودي الوليد بن طلال. تتمثل أهداف هذه المبادرات في السيطرة على المجال الإعلامي في المنطقة العربية.

بسبب عجزهم الديموغرافي واعتمادهم المستمر على الآخرين، فإن هذه القنوات يديرها ويعمل بها عادة مواطنون غير خليجيين، وهي تدار بشكل رئيسي من قبل الكوادر العربية/غير الخليجية ذات المهارات العالية، ولا سيما من مصر وبلاد الشام، شريطة التزامهم بالنهج الذي يحدده المالك.



تضع كل تلك القنوات عينها على مصر وعلى المشاهد المصري حتى أنها أنشأت قنوات خاصة تستهدف المشاهد المصري مباشرة مثل قنوات الجزيرة مباشر مصر وقناة MBC مصر وروتانا مصرية. تدس بعض تلك القنوات السم في العسل من خلال خلط الأوراق وتقديم

برامج جيدة و متميزة جداً في بعض الأحيان من خلال مقدمي برامج يحظون بشعبية جارفة في مصر، في مقابل برامج ساخرة يبدو جلياً من خلالها الرغبة في الحط من كل ما هو مصري وتمجيد كل ما هو خليجي، خاصة في مجال الثقافة والفن. غالباً ما تكون تلك البرامج تحت رعاية مؤسسات ثقافية ناشئة في بلدان الخليج.

بالإضافة إلى ما سبق ذكره، فإن محاولات نشر اللهجة العامية الخليجية بين أبناء الدول العربية الأخرى، لمنافسة اللهجات المصرية والشامية غالباً، تتم من خلال شراء حقوق بث النسخة العربية من القنوات الدولية مثل شبكة الكرتون Cartoon Network ومن خلال دبلجة الأفلام الكرتونية الشهيرة باللهجة الخليج العربي بدلاً من اللهجات المصرية أو السورية أو الأردنية التقليدية. تتم إتاحة القنوات الدولية المخلجنة مجاناً لكافة الدول العربية، بخلاف النسخ الإنجليزية من هذه القنوات التي لا يتم الولوج إليها سوى من خلال دفع رسوم واشتراكات للشركات صاحبة الحق في البث وإعادة البث في المنطقة العربية.

1 تركيب صوت مختلف، عادة بلغة أخرى، على فيلم أو مسلسل أجنبي.

خاتمة

حاولت في هذا الفصل تسليط الضوء على دول الخليج وتفاعلها الثقافي مع جيرانها، وخاصة¹ مصر، بالإضافة إلى التفاعل بين الثقافات والممارسات الثقافية. قمت بعرض موجز لتأثير المهاجرين المصريين والحكومة المصرية على دول الخليج في الحقبة التي سبقت اكتشاف النفط، ثم أسهبت في عرض ومناقشة تأثير الثقافة الخليجية على المجتمع المصري بعد ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر عام 1973. لا بد من الإقرار بأن موضوع التحويلات الاجتماعية للمهاجرين من الموضوعات الهامة التي لم تحظ بالاهتمام الكافي من الباحثين على الرغم من أهميتها الشديدة وخطورتها على الثقافة وعلى المجتمع ككل، لذلك فإنه لا يكفي تتبع ورصد التحويلات المالية فحسب عند الحديث عن آثار الهجرة على الرغم من أهميتها، بل ينبغي أيضاً أن يؤدي الباحثون مزيداً من الاهتمام بدراسة أثر التحويلات الاجتماعية والثقافية التي قد تلعب دوراً هاماً، بالسلب أو بالإيجاب، في إعادة تشكيل المجتمعات.

الخلاصة التي لا ينبغي إغفالها من خلال التحليل الذي أجري في هذا الفصل هي حقيقة أن المهاجرين لا يقومون بتحويل الأموال فقط، لكنهم يقومون بإرسال التحويلات المالية والاجتماعية والثقافية في ذات الوقت. تشير حالة مصر إلى أنه في حين أن تأثير التحويلات المالية كان إيجابياً، فإن تأثير التحويلات الاجتماعية والثقافية كان شديد السلبية بشكل عام وأدى إلى تشويه النسيج الاجتماعي والثقافي لمصر وللمصريين.

(7) الموزاييك الثقافي والهوياتي!

مصر تزدهر بالانفتاح على العالم وتنكمش حين تتفوق على نفسها. مصر تتجدد بالانفتاح وتذبل وتضمحل كما انغلقت على نفسها. مصر هي ذلك الموزاييك المبهر من الثقافات والعرقيات المختلفة المتجانسة التي تتجاذب ولا تتنافر، تندمج ولا تتمايز. مصر هي الطبقات التاريخية التي ينسجم بعضها مع بعض في نسيج المواطنة والتي لا تتأثر بالانتماءات تحت الوطنية ولا فوق الوطنية. مصريتنا جميعا هي العمود الفقري الذي يمكننا من استيعاب وهضم والتفاعل مع مختلف الثقافات وفرزها وتصنيفها ودمج بعضها في نسيج الشخصية المصرية ونبد ما لا يتوافق مع تلك الشخصية.

شخصية المصري شخصية معقدة بطبعها نظراً لثرائها الثقافي والتاريخي. صحيح أن شخصية المصري تأثرت بالقمع الذي مورس عليها خلال حُقب زمنية طويلة، وكذلك والتهميش الذي مارسته قوى الاحتلال والاستعمار والذي جعل المصري دائماً في موقع المفعول به والذي

سلب حقه في حكم نفسه بنفسه وجعله دائماً فريسة لحكام مرتبطين
بقوى إقليمية استعمارية. إستمر ذلك حتى منتصف القرن
العشرين.

انطلاقة مصر ونهضتها الحديثة لا تتأني إلا من خلال عودة/إعادة
الروح المصرية والأمة المصرية الجامعة القائدة التي تنصهر في بوتقتها
كافة الثقافات المحلية لتصنع ذلك الموزاييك الفريد الرائع لأمة عريقة
واعدة ورائدة في منطقتها وفي العالم.

المؤلف



الدكتور أيمن زهري باحث متخصص في الدراسات السكانية ودراسات الهجرة، عمل بالبحث والتدريس والعمل التنفيذي بالمجلس القومي للسكان (مصر) والمركز الديموجرافي بالقاهرة وأكاديمية تطوير التعليم ومركز جامعة ساسيكس لدراسات الهجرة

بإنجلترا والجامعة الأمريكية في بيروت والجامعة الأمريكية بالقاهرة والمركز الدنماركي للدراسات الدولية بكوبنهاجن. كما عمل مستشاراً في مجالات السكان والهجرة لدى جامعة الدول العربية والمنظمة الدولية للهجرة والبنك الدولي ومنظمة الأمم المتحدة للتعليم والعلوم والثقافة

والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية والإتحاد الأوروبي، بالإضافة
للعديد من المنظمات والهيئات الإقليمية والوطنية.

نُشرَ للدكتور زُهري العديد من الأبحاث والدراسات المتعلقة بالسكان
ودراسات الهجرة في العديد من الدوريات العلمية الدولية، كما شارك
في العديد من المؤتمرات والندوات الوطنية والإقليمية والدولية
المرتبطة بمجالات اهتماماته البحثية، كما نُشرَ له العديد من المقالات في
الصحافة المصرية والعربية. صدر له عدة كتب باللغة العربية خلال
السنوات القليلة الماضية.

الدكتور زُهري عضو نشط في العديد من الجمعيات العلمية المرتبطة
بمجالات إهتمامه ومنها، على سبيل المثال، الجمعية الجغرافية المصرية
وجمعية الديموغرافيين المصريين والإتحاد الدولي للدراسة العلمية
للسكان والجمعية الدولية لدراسة الهجرة القسرية والجمعية الأوروبية
للدراسات السكانية.

على المستوى الشخصي، يهوى المؤلف التصوير الفوتوغرافي والفنون
الشعبية والغناء الصوفي، والعمارة المملوكية.

قائمة المراجع

أيمن زُهوري (2006) دفتر أحوال المجتمع المصري، نشر خاص، القاهرة.

فيليب مانسيل (2017) ثلاث مدن مشرقية: سواحل البحر الابيض المتوسط بين التآلق والهاوية (الجزء الأول) ترجمة: مصطفى قاسم، العدد رقم 454، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت.

طه حسين (1938) مستقبل الثقافة في مصر، دار المعارف، القاهرة.
مصلحة التعداد (1909) تعداد سكان القطر المصري لسنة 1907، نظارة المالية، المطبعة الأميرية بمصر.

ميلاد حنا (1989) الأعمدة السبعة للشخصية المصرية، دار الهلال، القاهرة.

Ballantyne, W. M. (1986) The Constitutions of the Gulf States a Comparative Study, *Arab Law Quarterly*, 1(2): 158-176

Brink, J. (1991) The effect of emigration of husbands on the status of their wives: An Egyptian case, *International Journal of Middle East Studies*, 23(2):201-11.

- De Bel-Air, F. (2015) *Demography, Migration, and the Labour Market in the UAE*, GLMM - EN - No. 1/2018, Gulf Labour Markets, Migration and Population.
- Harding, R. (2017) Arbitration in the Gulf: anything new? *Constitutional Law International*, 12(2): 21-25.
- Lee, E.S. (1966) A theory of migration, *Demography*, 3(1): 47–57.
- Levitt, Peggy (1998) *Social remittances: migration driven local-live forms of cultural diffusion*, *International Migration Review* 23(4): 926–48.
- Rabbat, N. (2014) Encounters with Modernity in the Arab World, *Occasional Papers. Paper 14*, Yale Law School, http://digitalcommons.law.yale.edu/ylsop_papers/14 14.08.2019.
- Rapoport, H. (2016) Migration and globalization: what's in it for developing countries? *International Journal of Manpower*, (37) 7: 1209-26.
- Tsourapas, G. (2018) *Egypt: Migration and Diaspora Politics in an Emerging Transit Country*, Migration Information Source, <https://www.migrationpolicy.org/article/egypt-migration-and-diaspora-politics-emerging-transit-country> 13.08.2019.
- United Nations (1970) *Manual VI. Methods of measuring internal migration*, United Nations, New York.

- United Nations, Department of Economic and Social Affairs (2019) Trends in International Migrant Stock: The 2019 Revision, Population Division, United Nations, New York.
- United Nations, Department of Economic and Social Affairs, Population Division (2019). World Population Prospects: The 2019 Revision, Population Division, United Nations, New York.
- Youssef, D. (2017) Egypt's soft power in the Arab world, Opinion, The Washington Examiner. <https://www.washingtonexaminer.com/egypts-soft-power-in-the-arab-world> 13.08.2019.
- Zohry, A. (2002) *Rural-to-Urban Labor Migration: A Study of Upper Egyptian Laborers in Cairo*, Ph.D. dissertation, University of Sussex.
- Zohry, A. (2012) *Migration and the Egyptian dress code*, Your Middle East, http://www.yourmiddleeast.com/features/migration-and-the-egyptian-dress-code_10969, 26.12.2016.
- Zohry, A. (2017) Non-monetary Remittances of Egyptians Abroad, *Remittances Review*, 2(1): 23-29.
- Zohry, A. (2019) “*Ethnic Minorities in Alexandria, Egypt: Findings from the 1947 and 1960 Population Censuses*,” in AISU International (editor) *Multiethnic Cities in the Mediterranean World*:

History, Culture, Heritage, The Italian Association
of Urban History (AISU International), Pp: 195-206

كتب أخرى للمؤلف

2006	مجموعة مقالات	دفتز أحوال المجتمع المصري
2007	رواية	بحر الروم
2008	أدب رحلات	التجربة الدنماركية: تداعيات ما بعد الأزمة
2010	مجموعة مقالات	سلفني 3جنيه: الإتصالات والمجتمع في مصر
2014	معجم مصطلحات	معجم مصطلحات المقاهي الشعبية
2014	مجموعة مقالات	الفيسبوكيات
2015	رواية	رجع الصدى
2016	كتابات ساخرة	تخاريف
2021	سيرة ذاتية	الناس في صعيد مصر: ذكريات الطفولة

